القسم الأول

دراسة كتاب النورين

أولاً: لمحة موجزة عن الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في عصر المؤلف:

١ـ بيئة الحصري: «القيروان»:

تقع مدينة القيروان[١] في شمال إفريقية، وكانت من أعظم مدنها، وقد اتخذها الولاة من قبل الأمويين ثم العباسيين عاصمة لهم، حتى تمّ لها الاستقلال، فصارت عاصمة للأغالبة ثم الفاطميين والصنهاجيين وغيرهم.

وتكاد تجمع أغلب المصادر التاريخية على أن أول من اختط مدينة القيروان وبناها هو عقبة بن نافع، فعندما وصل إلى إفريقية في جيش قوامه عشرة آلاف من المسلمين، وفتحها اتجه إلى القيروان التي اختطها معاوية بن حديج من قبل، فلم تعجبه، فواصل السير حتى نزل في مكان مدينة القيروان اليوم، وركز رمحه في الأرض، وقال: «هذا قيروانكم»[٢]، ثم قال: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر»[٣]، فاتفق الناس على ذلك.

واختار عقبة للقيروان مكاناً إستراتيجياً قرب البحر، واتخذها مركزاً تخرج منه الجيوش لفتح سائر المغرب الأقصى، وشرع عقبةُ في بناء المدينة وتخطيطها في سنة

---

(١) في لسان العرب «القيروان معظم العسكر، والقافلة من الجماعة، وقيل إنه معرّب كاروان، وهو بالفارسية القافلة».

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي ١/١٩، تحقيق: ج. س. كولان، وإ. ليفي بروڤنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان بدون تاريخ.

(٣) المصدر السابق ١/١٩.

٥١هـ، وعمّرها حتى شدّ الناس إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها[١].

وفي سنة ٥٥هـ استعمل معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية مَسْلَمَة بن مخلّد الأنصاري، وعزل معاوية بن حديج عن مصر، وعزل عقبة بن نافع عن إفريقية، وولّىٰ عليها مولاه أبا المهاجر ديناراً وظل عليها إلى وفاة معاوية، وكره أبو المهاجر أن ينزل قيروان عقبة، فاختط مدينة أخرى قرب القيروان، وأمر الناس بحرق قيروان عقبة وتعمير مدينته[٢]. ثم رد يزيد بن معاوية عقبة إلى إفريقية، فعاد إلى القيروان وعمرها، وأهملت مدينة أبي المهاجر[٣].

وتطورت حركة العمران فيها تطوراً كبيراً، وأصبحت بعد مدة أهم مدينة بالمغرب. وتحولت إلى العاصمة السياسية الأولى في إفريقية، وبلغت أوج ازدهارها في عهد المعز بن باديس الذي ولي الإمارة سنة ٤٠٦هـ، فأصبح بلاطه محط بني الآمال كما يقول ياقوت الحموي[٤]، وقبلة العلماء والأدباء، تشدّ إليها الرحال من كل فج، لما يرونه من مكانتها، ولتوسطها البلاد الإفريقية وموقعها الذي جعلها بمثابة جسر طبيعي يربط بين المشرق والمغرب.

ووصفها الإدريسي قائلاً: «ومدينة القيروان أم أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن الغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناء، وأنفسها هممأً، وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وأنفقها سلعة. . والغالب على فضلائها التمسك بالخير، والوفاء بالعهد، والتخلي عن الشبهات واجتناب المحارم، والتفنن في محاسن العلم»[٥].

---

(١) انظر المصدر السابق ١/ ٢١.

(٢) انظر البيان المغرب ١/ ٢١-٢٢.

(٣) انظر «القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي» ص٥٧ د. الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م.

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٩/ ٣٧، دار المستشرق، بيروت، بدون تاريخ.

(٥) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص١١٠، تحقيق دوزي، طبعة ليدن ١٨٩١م.

٢ـ الحياة السياسية :

ظل الـولاة يتـداولون إفريقية من قبل الخلفاء الأمويين ثم العباسيين إلى سنة ١٨٤هـ، حيث استطاع الأدارسة ثم الأغالبة أن يستقلوا بإفريقية سياسياً عن الخلافة العباسية في المشرق.

واستمرت دولة الأغالبة حوالى مئة عام ونيف، إلى أن استطاع عبيد الله المهدي أن يتغلب عليهم ويطرد زيادة الله الثالث الأغلبي آخر أمرائهم سنة ٢٩٦هـ[١].

أ ـ الدولة الفاطمية (العُبيدية) في المغرب :

بدأ المذهب الشيعي ينتشر في المغرب على يد أبي عبد الله حسين بن أحمد ابن زكرياء[٢] الشيعي، الذي انتدبه زعماء المذهب الشيعي في المشرق، وكان زعيماً سياسياً داهية، استـطاع كسب القبائل البربرية وتكوين قوة سياسية بينهم، هدفها تأسيس دولة شيعية في المغرب، ولما قوي أنصاره، واشتد ساعده، حقق انتصارات عدة على زيادة الله الثالث انتهت بهروبه إلى المشرق، ودخل أبو عبد الله الشيعي رقادة والقيروان فاتحاً، ووضع بذلك حجر الأساس لدولة الفاطميين[٣].

ثم استدعى أبو عبد الله الشيعي أبا عبيد الله المهدي[٤] ـ أو عبيد الله المهدي ـ ليستلم الـزعامة، ولبّى أبو عبيد الله، وارتحل بأهله وأنصاره إلى المغرب، وواجه

---

(١) انظر تاريخ دولة الأغالبة في البيان المغرب ١ / ٨٣ـ١١٧.

(٢) هو أبو عبدالله حسين بن أحمد بن زكرياء الشيعي، أحد أصحاب ابن حوشب النجار، زعيم المذهب الشيعي في عدن في أواخر القرن الثالث الهجري، وأصله من مدينة صنعاء، وعرف بأبي عبدالله الداعي أو الصنعاني أو المشرقي كما يسميه غلماء المغرب (انظر البيان المغرب ١/١٥٨).

(٣) انظر البيان المغرب ١ / ١٢٤ـ١٥٧، والقيروان ص ٨٤ـ٨٥.

(٤) اختلف في نسبه إذ ادّعى أنه عبيدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقيل إنه دعيّ، واختلفت مصادر التاريخ حول نسبته (انظر البيان المغرب ١/١٥٨).

صعوبات جمّة خوفاً من الخليفة المكتفي بالله العباسي الذي أرسل وراءه عيونه، وكان آخر هذه الصعوبات سجنه في سجلماسة، إلى أن أتى أبو عبدالله الشيعي بجيش لتخليصه، ثم توجها معاً إلى رقادة سنة ٢٩٧هـ، وهكذا استقر الأمر للفاطميين في المغرب[١].

ثم توفي المهدي ووليه القائم بأمر الله، ثم إسماعيل المنصور، ثم المعز لدين الله الفاطمي، وهو من ألمع خلفائهم وأكثرهم اعتناءً بالحركة العلمية، وقد أصبحت القيروان في عهده منارة ثقافية مهمة.

وفي عام ٣٥٦هـ أرسل المُعِز جيشاً من القيروان لفتح مصر بقيادة جوهر الصقلي، وبعد سنة أرسل جوهر إلى أميره يبشره بفتح مصر وتأسيس مدينة القاهرة، وخرج المعز لدين الله سنة ٣٦١هـ قاصداً مصر، وبذلك آذن حكم الفاطميين بالانتهاء في المغرب[٢].

ويهمنا من هذا العصر نصفه الثاني لأن الحصري عاش فيه، إذ المرجح أنه ولد نحو عام ٣٣٠هـ.

ب ـ الدولة الصنهاجية:

قبل رحيل المعز إلى مصر ولّى يوسف بن زيري بن مناد أمر المغرب ما عدا صقلية وطرابلس، وقد اختاره المعز لإخلاصه وحنكته السياسية ومهارته العسكرية. وقد صدّق يوسف ظنّ المعز فيه، وظلّ مخلصاً لهم حتى توفي سنة ٣٧٣هـ، فخلفه ابنه أبو الفتح المنصور، ثم ابنه باديس سنة ٣٨٦هـ، وكثرت في أيام باديس الاضطرابات السياسية والثورات في المغرب الأوسط والأقصى، مما شجع القبائل ـ وخاصة قبيلة زناته ـ على التمرد والعصيان، ودب الخلاف داخل صفوف الأسرة الحاكمة نفسها، وتوفي باديس سنة ٤٠٦هـ، وخلفه ابنه المعز بن باديس الذي قام

---

(١) انظر البيان المغرب (١/ ١٥٨-١٧١)، والقيروان ص ٨٥-٩٣.

(٢) انظر البيان المغرب ١/ ٢٠٨-٢٢٨، والقيروان ص ٩٦.

بدور مهم في حياة الدولة الصنهاجية، مما كان له أكبر الأثر في حياة القيروان السياسية والفكرية بعد ذلك. فقد خلع المعز الولاء للفاطميين، وترك الدعاء لهم، وبايع الخليفة العباسي أبا جعفر القائم بأمر الله، وحمل سكان إفريقية على اتباع المذهب المالكي، مما أدى إلى تتبع الشيعة واضطهادهم.

وقد كان لقطع العلاقة بين دولة الصنهاجيين والفاطميين نتائج خطيرة، إذ أرسل الفاطميون جيشاً من قبيلتي بني هلال وبني سليم، اتجه نحو القيروان مستبيحاً القرى والضياع، حتى وصلوا القيروان وحاصروها لمدة طويلة، وما لبثت أن سقطت في أيديهم فأزالوا معالمها، ونهبوها نهباً لم تعرفه القيروان، ووقعت فيها مجازر ومآسٍ، ومات الآلاف من سكانها، وهرب المعز إلى المهدية بعد مقاومة مستميتة سنة ٤٤٩هـ[1].

وهكذا فقدت القيروان أهميتها السياسية والاقتصادية بعد أن كانت محط الرحال وقبلة الآمال.

ويهمنا من هذا العصر إلى عام ٤١٣هـ، وهو تاريخ وفاة الحصري عند أغلب المؤرخين ـ فقد توفي في عهد المعز بن باديس ـ، ولاسيما أن هذه الفترة تمثل نضج الحصري ونبوغه، وفي هذا العصر ظهرت أيضاً النهضة الأدبية الكبرى بإفريقية وبخاصة في بلاط المعز بن باديس الصنهاجي[2].

ولا نجد في كتب الحصري أو أشعاره، أو في المصادر التاريخية التي ترجمت له وتعرضت لحياته أي إشارة تدلنا على تفاعله واندماجه مع أحداث عصره

---

(١) انظر الدولة الصنهاجية في البيان المغرب ١/ ٢٢٨ـ٢٩٥، والقيروان من ص ٩٨ـ١٠٧.

(٢) انظر في ذلك: البلاط الأدبي للمعز بن باديس ـ د. عبده عبدالعزيز قلقيلة، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٣م.

وانظر «الحصري، حياته وأدبه والنقد في كتابه زهر الآداب» ص٢٨، ٣٢ـ٣٤ د. محمد بن سعد الشويعر، دار عبدالرحمن الناصر للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢ ١٩٨٤م.

السياسية[1]. ولـم تـرد في كتابه «النورين» ـ الذي تناولناه بالتحقيق والدراسة ـ أي إشـارة إلى الحياة السياسية بعامة، أو إلى الحياة الأدبية بوجه خاص في المغرب والأندلس، سوى بعض ما نقله من أشعـار متفرقة للأمير تميم بن المعز الفاطمي أو لمحمد الإيادي أو عبد الكريم النهشلي أو لابن هانىء الأندلسي.

٣ـ الحياة الثقافيـة[2]:

لعبت القيروان دوراً كبيراً في الحركة الثقافية في المغرب العربي، إذ كانت أهم مركز للثقافة والعلم، يؤمه الطلاب، كما يقصده العلماء والأدباء من كافة أقطار المغرب.

قال عبد الواحد المراكشي فيها: «كانت القيروان هذه في قديم الزمان ـ منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب ـ دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكبر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم..»[3].

وقـد كان للرعيل الأول من العلمـاء والأدبـاء والفقهـاء الـذين صحبـوا الفتح الإسـلامي أثـر عميق في الحياة الفكـرية والثقافية في المغرب كلّه على اختلاف العصور، مما طبع القيروان بطابع خاص استطاعت أن تحافظ عليه، وتتصدى به

---

(١) انظر الحصري للشويعر من ص ٣٤ـ٣٦.

(٢) انظر في الحياة الثقافية المراجع الآتية:

١ـ عصر القيروان ص ٣١، أبو القاسم محمد كرّو، وعبدالله شريط، دار المغرب العربي، تونس، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٢ـ حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، ص٨٩ ـ د. عبدالرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦١م.

٣ـ القيروان، الجنحاني ص ١٥٣.

٤ـ الحصري، الشويعر ص ٣٧.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشي ص ٣٥٦ ـ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م.

لكل التيارات المختلفة التي ماجت بها البلاد الإسلامية ومنها إفريقية[1].

وابتداء من أواخر القرن الثاني الهجري إلى حوالي منتصف القرن الخامس الهجري، عاشت القيروان قمة ازدهارها الفكري، مما جعلها في طليعة العواصم الإسلامية الكبرى التي لعبت دوراً فعالاً في تاريخ الفكر الإسلامي، وأصبح لقب القيرواني للعالم أو الأديب وسام فخر، له وقعه على الأسماع[2].

وبالاطلاع على كتب الطبقات يتجلى لنا الدور المهم الذي اضطلعت به مدينة القيروان، ومما يروى عن الإمام مالك قوله: «إن أهل الذكاء والعقل من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة ثم الكوفة ثم القيروان»[3].

ويعد العصر الصنهاجي العصر الذهبي لإفريقيةحيث بلغت فيه أوج حضارتها ومجدها، وتمتع أهلها بالرخاء والثروة، وظهر أثر ذلك في علومهم وفنونهم وكمالياتهم، وازدهر الأدب تبعاً لذلك، وتدرج الشعر في مراقي الكمال، وراجت سوق الفكر والثقافة رواجاً عظيماً[4].

وقد ساعد على إذكاء تلك النهضة ما شغف به أمراء البيت الصنهاجي من حب للعلم وإقبال على الأدب، رغبة منهم في بث العلوم ونشر المعارف، ويأتي في مقدمتهم المعزّ بن باديس، فقد بالغ في إكرام العلماء والأدباء والإغداق عليهم ومنحهم أسمى الرتب، حتى سارت بذكره الركبان، وقصده العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، وصارت القيروان أيامه قبلة الطلاب، والتقى فيها شوامخ الأدباء والعلماء[5]، وكان الحصري ممن قدم عليه ونال أعطياته[6].

---

(١)، (٢) انظر مقدمة ديوان ابن شرف القيرواني ص ١٤ ـ تحقيق د. حسن ذكرى حسن ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية، بدون تاريخ.

(٣) طبقات علماء إفريقية ص ٢٦، محمد بن تميم القيرواني، تونس ١٩٦٨م.

(٤)، (٥) انظر مقدمة ديوان ابن شرف ص ١٥.

(٦) انظر البلاط الأدبي للمعز بن باديس ص ٤٥.

ويصور ياقوت الحموي عهد المعز بن باديس، وما حفلت به القيروان في عهده من تقدم وازدهار في أثناء ترجمته لابن شرف فيقول: «وكانت القيروان في عهده وجهة العلماء والأدباء لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب، وعنايته بهم»[1]. وقد دفع هـذا النشاط الفكري والأدبي ابن رشيق إلى تأليف كتاب خاص عن شعراء القيروان أسماه «أنموذج الزمان في شعراء القيروان»، وصل عدد الشعراء الذين تناولهم فيه إلى أكثر من مئة شاعر كلهم ممن عاش فيها وعاصر نهضتها، سواء من أهلها أو من الوافدين عليها.

وقد وصلت النهضة الأدبية قمة ازدهارها إبان الحركة النقدية التي ظهرت في هذا العصر، فقدم لنا ابن رشيق كتابه «العمدة» والنهشلي كتابه «الممتع في صنعة الشعر»، والحصري كتبه المعروفة وعلى رأسها «زهر الآداب وثمر الألباب» بما فيها من نظرات نقدية متفرقة، وغيرها[2].

وهكذا يمكن القول بأن القيروان نعمت في ظلال الصنهاجيين وبخاصة في أثناء حكم المعز بن باديس ـ بأزهى عصورها الفكرية والثقافية على الإطلاق، وظلت هكذا حتى دخلها الأعراب وعاثوا فيها فساداً عام ٤٤٩هـ، فكان ذلك تحولاً خطيراً في حركة التطور الثقافي والحضاري فيها، وانطفأت شعلة الازدهار وانتقلت تبحث عن مركز آمن لها.

٤ـ الحياة الاجتماعية[3]:

كانت الحياة الاجتماعية في القيروان ـ خاصة إبان حكم الصنهاجيين ـ غاية في

---

(١) معجم الأدباء ١٩/٣٧.

(٢) انظر كتاب النقد الأدبي في المغرب العربي ـ د. عبده قلقيلة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ١٩٧٣م.

(٣) انظر في الحالة الاجتماعية المراجع الآتية:

١ـ عصر القيروان ص ٢٤ ـ ٢٦.

٢ـ القيروان، الجنحاني من ص ١٤٦ـ١٥٣. =

النشاط واتساع العمران، وانتشر في أهل القيروان البذخ والترف، واستكان أهلها إلى الدعة والرفاهية، وانتعشت أوجه النشاط التجاري فيها، فأصبحت جسراً يربط المشرق بالمغرب، وكثر رواد المدينة والوافدون عليها، سواء للتجارة أو العلم، وعمرت أسواقها وحماماتها ومسجدها الجامع بشتى صنوف الوافدين.

و انتشرت في ضواحيها أماكن اللهو والطرب وسباق الخيل، وبالغ الناس في التأنق في اللباس رجالهم ونساؤهم، حتى قيل إن أحد القضاة ترك كسوة بعد وفاته قوّمت بألف دينار.

وتفنّن الناس في أنواع المآكل والمشارب، ولا تزال القيروان إلى اليوم تحتفظ بجانب من مظاهر هذه الحضارة.

= ٣ـ الحصري للشويعر من ص ٥٤ـ ٦١.

٤ـ حياة القيروان، ياغي ص ٧١ـ٨٦.

ثانياً: ترجمة الحصري القيرواني

١ـ اسمه ونسبه[١]

هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني الأنصاري[٢]، وهو ابن خالة أبي الحسن علي الحصري الشاعر الضرير[٣].

---

(١) انظر ترجمة الحصري في:

١ـ شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق القيرواني ص١٧ ـ جمع وتعليق زين العابدين السنوسي، دار المغرب العربي، تونس ١٩٧٣م.

٢ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢/ ٩٤.

٣ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لعلي بن بسّام الشنتريني، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٨٤ـ تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

٤ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٥٤ ـ تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٧٧م.

٥ـ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي/ ٦١ ـ تحقيق س. ديدرينغ، مطابع دار صادر، بيروت، لبنان ١٩٧٢م.

٦ـ معجم المؤلفين ١/ ٦٤ ـ عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٧م.

٧ـ مجمل تاريخ الأدب التونسي ص١١٩، حسن حسني عبدالوهاب، مكتبة المنار، تونس ١٩٦٨م.

٨ـ تراجم المؤلفين التونسيين ٢/ ١٤٩ ـ محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

٩ـ عصر القيروان ص ٦٥.

١٠ـ الحصري، الشويعر ص ٦٧.

(٢) لم ترد هذه النسبة (الأنصاري) إلاّ في معجم الأدباء ٢/ ٩٥ دون توضيح، وفي المختار من شعر بشار ص١٤٧، بدون معلومات.

(٣) كما جاء في شعراء القيروان ص١٩، والوفيات ١/ ٥٥، والوافي ٦/ ٦١.

والحُصْري ـ بضم الحاء وسكون الصاد ـ إما نسبة إلى عمل الحصر وبيعها، كما ذكر ابن خِلِّكان، أو نسبة إلى قرية تسمى الحُصْر، كانت حذو القيروان تصنع بها الحُصْر، وسواء كانت النسبة للقرية أم للمهنة فالصواب بتسكين الصاد، وقد ضبطها ياقوت بفتح الصاد «الحُصَري» دون ذكر نسبة معينة.

وقال الزَّبيدي في تاج العروس (حَصَر): «والحُصُري بالضم، قال شيخنا: والمعروف ضبطه بضمتين كما في الطبقات «أي الحُصُري».

والقيرواني نسبة إلى القيروان حيث نشأ المؤلف، أما الأنصاري فلم توضح لنا المصادر التي ذكرت هذا النسب شيئاً عنه، ولعل أحد أجداده كان مولى لبعض الأنصار كما ذهب الدكتور الشويعر[1].

٢ـ مولده ونشأته:

لم تشر المصادر القديمة التي ترجمت للحصري إلى مكان ولادته وتاريخ مولده، ولعل ذلك يعود ـ كما أشار الدكتور الشويعر[2] ـ إلى أن الحصري ولد في بيئة عادية ولم يكن من بيت علم أو جاه حتى يُحتفى بمولده، إلاّ أن مكانته العلمية فيما بعد لفتت إليه الأنظار، فكانت وفاته موضع اهتمام الباحثين.

وقد رأى[3] بعض الباحثين المعاصرين أنه ولد في القيروان[4] عام ٣٣٠هـ[5]، بناء على أن وفاته عام ٤١٣هـ، وأنه مات فوق الثمانين أخذاً من كلمة ابن رشيق في الأنموذج أنه مات «وقد جاوز الأشد»[6].

---

(١) انظر الحصري للشويعر ص ٦٩.

(٢) انظر الحصري للشويعر ص ٧٢

(٣) انظر المرجع السابق ص ٧٢، ٧٣.

(٤) أشار د. محمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين ٢/١٤٩ إلى أنه ولد بالقيروان، وكذلك بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٥/١٠٥ ـ ترجمة د. رمضان عبدالتواب، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

(٥) انظر عصر القيروان ص ٦٥، والنقد الأدبي في المغرب العربي ص ١٢٣.

(٦) شعراء القيروان ص ٢٠، ومعجم الأدباء ٢/٩٥.

ومنهم من رأى أن ولادته مرجحة بين ٣٧٠هـ - ٣٨٠هـ[١]، اعتماداً على أنه توفي سنة ٤٥٣هـ، وأنه مات وعمره فوق الثمانين.

ويرجح الدكتور الشويعر بعد عرضه كافة الآراء ومقابلتها أنه ولد عام ٣٦٣هـ[٢] تقريباً لأن عبارة ابن رشيق «جاوز الأشد» لا تعني أنه بلغ الثمانين كما فهمها بعض الباحثين المعاصرين، لأن أقصى حد للأشد عند اللغويين أربعون سنة، كما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾[٣].

والواقع أن هذا الاختلاف بين الباحثين مردّه إلى اختلاف المصادر في تحديد سنة الوفاة اختلافاً لا نستطيع تحديد الصحيح فيه بدقة، لأن الحصري لا يذكر في كتبه أي إشارات تاريخية تدل على معاصرته لأحداث معينة، منها خراب القيروان ودمارها على أيدي الأعراب، فلا ندري أشهد هذا الحدث التاريخي المرير في القيروان سنة ٤٤٩هـ ولم يسجله، أم أنه توفي قبل ذلك في سنة ٤١٣هـ؟ كما ذكرت مصادر أخرى.

أما عن نشأته فلم تحدد المصادر التاريخية أيضاً تسلسلاً واضحاً عن نشأة الحصري، وعن شيوخه الذين أخذ عنهم.

ولعل أهم خبر وصلنا عن نشأته ما جاء في الذخيرة لابن بسام نقلاً عن ابن رشيق في أنموذج الزمان حيث يقول: «كان أبو إسحاق الحصري قد نشأ على الوِراقة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع مدينة القيروان، فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه، ونظر في النحو والعَروض، ولزمه شبان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار، وصنعة الأشعار، مما يقرب في قلوبهم، فرأس عندهم، وشرف لديهم، ووصلت تأليفاته صقليّة وغيرها، وانثالت الصلات عليه»[٤]

---

(١) انظر عصر القيروان ص ٦٧.
(٢) انظر الحصري للشويعر ص ٧٣، ٧٤.
(٣) سورة الأحقاف، آية ١٥.
(٤) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٩٣.

وتتجلى أهمية العبارة السابقة في كونها تكشف إلى حدّ ما عن فترة غامضة من حياة الحصري. هي تلك التي سبقت زعامته الأدبية في القيروان، وهي فترة نشأته وتلقيه العلم، إذ يبدو أنه كان حسن الخط، جيد النسخ، فعمل مع الوراقين، وحصّل من جرّاء ذلك الشيء الكثير والعلم الغزير، بملازمته دكاكين الوراقين، واطلاعه على المؤلفات المتنوعة آنذاك، وبذا يتضح لنا مصدر مهم من مصادر ثقافته الموسوعية عن أدب المشرق وأخباره، مما امتلأت به كتبه ومصنفاته.

كما تشير العبارة إلى ملازمته مسجد مدينة القيروان، إذ كان منزله ملاصقاً له، مما يجعله دائم المواظبة على حضور مجالس العلم وحلقات الدرس، يتلقى منها إبان نشأته، ثم يفيد فيها بعد أن نضج فكره واستقامت طريقته، ويتبادل الآراء، ويجالس كبار العلماء، وينظر في الكتب والمؤلفات: «وفيه اجتماع الناس إليه ومعه»، ومعلوم مكانة المسجد العلمية في ذلك الزمان.

وبذا نستطيع أن نقول إن الحصري نشأ في القيروان، وتلقى العلم والأدب فيها من طريقين:

الأول: ملازمته دكاكين الوراقين ونسخه الكتب فيها، والثاني: ملازمته مسجدها كحال طلاب العلم في ذلك الزمان.

ولما انتقل الفاطميون إلى مصر، وأخذوا معهم كبار الشعراء، خلا الجو للحصري فبرز أديباً عالماً، وتتلمذ على يديه العديد من العلماء والأدباء[1].

وأما عن عقيدة الحصري ومذهبه، فهو في الغالب سني، خلافاً للاتجاه العام المتشيع للفاطميين، ويقال إن أغلب أهل القيروان كانوا من أهل السنة، ويؤيد سنّيته عدة أخبار وردت في كتبه، منها ما ورد في النورين في حديثه عن أبي بكر الخوارزمي يقول: «وكان رافضياً غالياً، في مرتبة الكفر عالياً». ثم يذكر له أبياتاً، ويقول: «لعن من قال»[2].

(١) انظر عصر القيروان ص ٦٥، والبلاط الأدبي للمعز بن باديس ص ٧٦.

(٢) انظر النورين الورقة ١٦ ب.

ولـو كان الحصري شيعياً لامتدح الخوارزمي، أو على الأقل لم يسبه ويلعنه ويكفره، كما أنه يختم كتابه بالصلاة على النبي الكريم وعلى أصحابه.

٣ـ شيوخــه:

لم تذكر المصادر التي ترجمت للحصري أسماء شيوخه الذين أخذ عنهم، وقرأ عليهم، وتلقى ثقـافتـه عنهم، ووردت في الـذخيرة عبارة بسيطة تقول: «كان أبو إسحاق الحصري يختلف إلى بعض مشيخة القيروان..»[١].

ولا نجـد في كتبـه أيضاً إشارات إلى هؤلاء الشيوخ، ولا نجد في كل كتاب النورين ذكراً لمن نقل عنهم سوى سند واحد أورده في أول كتابه مما يلي المقدمة يقول[٢]: «حدثني أبو محمد الحسن بن القاسم، قال: حدثنا أبو الخير رواحة بن عبدالله الهاشمي بالريّ قراءة عليه، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن يحيى الصولي قال: حدثنا يموت بن المزرع عن خاله أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ..»

وهو ينص على حذف الأسانيد في مقدمة الكتاب يقول[٣]: «وأنا أحذف أسانيد ما رويته، وآتي بمتون ما رأيته».

ولعل في قوله «رأيته» إشارة تدل على أن أغلب مصادر الحصري التي نقل عنها كانت الكتب التي اطلع عليها وقرأها، وبخاصة في أثناء عمله مع الوراقين، إذ لو كان قد أخذ عن شيخ مشهور معروف لما أغفله، ولأشار إليه على طريقة المؤلفين في عصره.

وقد صرّح الحصري في كتابه النورين بأنه يستمد بعض مواده من مصادر مكتوبة ومؤلفـات دون أن يسميها، كقوله عن الثعالبي[٤]: «وكل ما أحكيه من ألفاظ أهل العصر غير منسوب إلى قائله فمستخرج من تأليفه، مأخوذ من تصنيفه».

ولذا نستطيع القول إن المشارقة ومؤلفاتهم التي نقل عنها هي مصدر علمه،

(١) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٩٥.

(٢) مخطوطة النورين ورقة ٥ أ.

(٣) مخطوطة النورين ورقة ٥ أ.

(٤) مخطوطة النورين ورقة ٤٩ ب.

ومنبع كتبه، لعدم عثورنا على أسماء من أخذ عنهم مشافهة إلاّ في النادر[1]، وسيأتي تبيان مصادر المؤلف وروافد ثقافته في هذه الدراسة إن شاء الله.

٤ـ تلامذته ومنهجه التعليمي:

يقول ابن رشيق في أنموذجه مبيناً مكانة الحصري العلمية: «وكان شبّان القيروان يجتمعون عنده، ويأخذون عنه، ورأس عندهم وشرف لديهم»[2].

ويبدو من هذه العبارة أن الحصري كان مقصداً يؤم منزله الأدباء والشبان ليأخذوا عنه أدبه، وما يرويه من أدب غيره، وربما كان اجتماعهم ذاك بالمسجد، وهذا ما نستظهره من قول ابن بسام في ذخيرته: «وكان منزله لزيق جامع مدينة القيروان، فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه..»[3].

وأما أشهر من أخذوا عنه وعرفناهم لشهرتهم بعد ذلك فمنهم:

١ـ أبو طاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي، صاحب شرح المختار من شعر بشار، فقد أخذ عن أبي إسحاق، وسمع منه، ونقل عنه[4].

٢ـ ومن تلامذته أيضاً ابن رشيق القيرواني[5] الذي ترجم له في أنموذجه، وأشار إلى علمه وفضله ومكانته الأدبية فقال: «كان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبي تمام، وتتبعاً لآثاره..»[6].

وتبدو خبرته به عن قرب في قوله: «وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيّته

---

(١) انظر الحصري للشويعر ص ٨٢.

(٢) شعراء القيروان ص ١٩.

(٣) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٩٣.

(٤) انظر مقدمة المختار من شعر بشار ص: ي، ك، ثم انظر إشاراته إلى الحصري في ص ١٤٧، ١٧٩، وانظر مجمل تاريخ الأدب التونسي ص١٣٧.

(٥) انظر حياة القيروان ص ١٣٣، ١٥١، ١٥٣.

(٦) شعراء القيروان ص ١٨.

لجرى مجرى الماء، ورقّ رقّة الهواء»[1]، ثم يقول: «سارت تأليفاته، وانثالت عليه الصلات من الجهات»[2].

كما أن في إشارته إلى أن شبّان القيروان يجتمعون عنده، ويأخذون عنه ما يدل على أنه يشهد تلك المجالس ويتتبع أخبار صاحبها، حتى إذا بلغه عزمه على أن يعمل طبقات الشعراء ويوردهم على رتب الأسنان ـ وكان ابن رشيق أصغر القوم سناً ـ اعترض عليه، فانصرف الحصري عن ذلك[3].

يقول الدكتور ياغي: ولا شك أن صلة الأستاذ بالتلميذ كانت صلة تقدير، فالأستاذ يقدر رأي تلميذه ويكون لرأي ابن رشيق أثر في انصراف الحصري عن مشروعه مهما يكن ذلك الأثر ضيئلاً.[4]

٣ـ ومنهم أيضاً ابن شرف القيرواني، قال ياقوت في ترجمته: «أخذ العلوم الأدبية عن أبي إسحاق الحصري»[5]، وفي هذه العبارة دليل واضح على قيام الحصري بتدريس الشبان في القيروان.

وقد أفاد تلامذة الحصري منه، إذ قام بتعريفهم بالنصوص الأدبية لمشاهير أدباء المشرق، وأهم أخبارهم، وكأن هذا التعريف كان مقصداً بحد ذاته، إذ لا نجد في كتبه نصوصاً مغربية إلّا فيما ندر.

وقد حبّب الحصري إلى المغاربة أدب المشارقة المحدثين، ونقله لهم عبر مؤلفاته، بينما كان الشائع في المغرب هو الأدب القديم واحتذاؤه[6].

يقول د. الشاذلي بويحيى: «استطاع إبراهيم الحصري.. بواسطة تدريسه

---

(١) شعراء القيروان ص ١٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٩، والوافي بالوفيات ٦/٦١.

(٣) انظر شعراء القيروان ص١٩، ٢٠.

(٤) حياة القيروان ص ١٥٣.

(٥) معجم الأدباء ١٩/٣٧.

(٦) انظر الحصري للشويعر ص ٨٣.

المباشر والطابع التعليمي في إنتاجه وأصالة نظريته ومنهجه في نمط الأدب، وعلى وجه الخصوص أدب النصوص، وتفضيله الأدباء الشبان . . ، علاوة على دائرة معارفه الواسعة ـ استطاع بكل هذا أن يفرض نفسه كمعلّم تجاوز إشعاعه حدود إفريقية، ولم يلبث أن ترك أثراً في الانطلاقة الأدبية في الغرب الإسلامي، وقد شارك نموذج كتاباته ومختاراته في نشر الذوق الفني الدسم. وقد أدخل فن المقامة الذي لم يلبث أن درس بعناية من قبل أحد تلاميذه: ابن شرف»[1].

بينما يرى الدكتور الشويعر أن تأثير الحصري في تلامذته لم يكن تأثيراً فكرياً ينتمي إلى شخصيته العلمية، بل هو تأثير رجل إخباري ناقل، حفظ ودوّن أدب المشارقة، ونقله إلى تلامذته ليفيدوا منه[2].

ويبدو أن هذا الحكم مستقى مما حوته مؤلفات الحصري من أدب مشرقي جمّ، ولكننا في الحقيقة لا نستطيع تحديد مدىٰ تأثير الحصري في تلامذته، وبخاصة في أثناء اجتماعهم به، وتدريسه لهم في تلك الحلقات التي تجذبهم إليه، وذلك لقلة الأخبار التي وصلتنا عن حياته وثقافته، ولكنه ولا شك أثّر فيمن أخذ عنه تأثيراً لا ينكر، وبخاصة بآرائه النقدية التي بثّها متفرقة في أثناء مؤلفاته، والتي تدل على مشاركة الحصري وإسهامه في الحركة النقدية آنذاك ولو بطريق غير مباشر، ويكفينا دليلاً على ذلك رأي تلميذه ابن رشيق فيه: «وكان شاعراً نقّاداً، عالماً بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام»[3]، إذ لو كان تأثيره تأثير رجل إخباري لاتضح لنا ذلك من كلام ابن رشيق عنه، ولكن قوله «نقّاداً» إشارة مهمة إلى إسهامه في تلك الحركة النقدية، والتي وصلت أوجها في عصر المؤلف، وتوّجها كتاب تلميذه ابن رشيق «العمدة في صناعة الشعر ونقده».

---

(١) انظر الحصري للشويعر ص ٨٥ نقلاً عن «الحياة الأدبية في إفريقية تحت حكم الزيريين» ص٢٣، د. الشاذلي بويحيىٰ، كتاب مطبوع باللغة الفرنسية.

(٢) انظر الحصري للشويعر ص ٨٣.

(٣) شعراء القيروان ص ١٨.

٥ـ ثقافتـــه :

لم تصـل إلينـا ترجمة مفصلة عن الحصري ونشأته وشيوخه، والمصادر التي استقى منها هذا الفيـض الغزير الذي ملأ به كتبه.

ومن ثمّ فإن ثقافته تبرز لنا من خلال تلك الكتب والمؤلفات، وهي ثقافة واسعة استمدها في الغالب من قراءاته الكثيرة، واطلاعه على أمهات كتب المشرق حين عمل مع الوراقين في استنساخها ونقلها إلى المغاربة، وقد هيأ له هذا العمل مصدراً كبيراً من مصادر الثقافة التي كانت طرق انتشارها محدودة، ومن منافذ معينة، أعانه على ذلك حافظة قوية وموهبة فذة في الجمع والتحصيل والتدوين.

وقد أصبحت مؤلفات الحصري بعد ذلك مصدراً رئيساً لأدب المشارقة بالنسبة للمغاربة، وللأندلسيين أيضاً، فأقبلوا عليها إقبالاً ارتفع بصاحبه إلى منزلة رفيعة في القيروان، وامتـدت ثقـافته وشملت بعد ذلك أسماء لامعة كابن رشيق وابن شرف وغيرهم كما أسلفنا.

وأما المصادر التي أمدته بهذا الفيض الغزير من الأشعار والأخبار، فسنشير إليها في موضعها من هذا البحث إن شاء الله عند الحديث عن مصادر كتاب النورين[1].

مكانته العلمية والأدبية :

لعلّ أحقّ الناس بالشهادة للحصْري تلميذه ابن رشيق إذ يشير في أنموذجه إلى مكانة الحصري في عصره، يقول: «كان شاعراً نقّاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبي تمام وتتبعاً لآثاره. . . ، وكان شبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه، ورأس عندهم، وشرف لديهم، وسارت تأليفاته، وانثالت عليه الصلات من الجهات»[2].

---

(١) انظر ص ٤٩ من هذا البحث.

(٢) شعراء القيروان ص ١٨، ١٩، والوفيات ١/ ٥٤.

ويقول عنه ابن بسّام: «كان أبو إسحاق هذا صدر النديّ، ونكتة الخبر الجلي، وديوان اللسان العربي، راض صعابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشتاته، وأحيا مواته، حتى صار لأهله إماماً، وعلى جدّه وهزله زماماً، وطنّت به الأقطار، وشدّت إليه الأقتاب والأكوار. وأنفقت فيما لديه الأموال والأعمار وهو يقذف البلاد بدررٍ صدقها الأفكار وسلوكٍ ناظمها الليل والنهار، عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بـ «زهر الآداب وثمر الألباب»، فلعمري ما قصّر مداه، ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه، . . بكلام أهل العصر دون كلام العرب، لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلّا من ضاق عنه الأمد، وأعمى بصيرته الحسد. .»[1].

ولعل هاتين العبارتين تلخصان ما نريد قوله عن مكانة الحصري، فقد بلغ في العلم والنقد والشعر مكانة مرموقة في القيروان، أهّلته ليكون أستاذاً بل إماماً، يؤمه الطلاب ليفيدوا من ثقافته، وبخاصة بعد أن اشتهرت مؤلفاته، وتناولها القريب والبعيد.

ويرى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه بعد انتقال البلاط الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، وأصطحاب الأمراء حاشيتهم وغالب شعرائهم تشخصت الرئاسة الأدبية في إبراهيم الحصري، وتمخضت الزعامة فيه[2].

بينما يرى الدكتور الشويعر أن زعامته جاءت بعد معاناته لتأليف الكتب إذ عادة العلماء أن يشتهروا بعد التأليف، وأشهر كتبه «زهر الآداب وثمر الألباب» ألفه عام ٤٠٥هـ، أي أن زعامته بدأت بعد هذا التاريخ في الغالب[3].

وقد اشتهرت مؤلفات الحصري وذاع صيتها في البلاد ـ كما يقول ابن رشيق ـ، وأدرك معاصروه مكانة الحصري، وجلال قدره، فانثالت عليه الصلات، وأقبل عليه

---

(١) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٨٤.

(٢) مجلة الثريا، عدد ٩ السنة الأولى، ص٤، نقلاً عن الحصري للشويعر ص٧٥.

(٣) انظر الحصري للشويعر ص ٧٥.

الأمراء ورجال الدولة يكرمونه ويجزلون له العطاء، وكان قد أهدى مؤلفاته إلى بعض أمرائهم وكبرائهم، ومنها كتاب النورين.

وما ورد من أن الحصري توفي بالمنصورية أو صَبْرة إشارة أخرى تدل على مكانته آنذاك، إذ كانت المنصورية منزل الولاة بالقيروان، سواء في العهد الفاطمي أو بعد ذلك في العهد الصنهاجي، وهذا يدل على ملازمة الحصري ذوي المكانة والنفوذ لشهرته[1].

ويكفينا لمعرفة مكانة هذا الرجل المرموقة الاطلاع على مؤلفاته التي وصلتنا، والتي أثرت المكتبة الأدبية، وأضافت إلى المجموعات الأدبية المشرقية والمغربية مجموعة لا غنى عنها للباحث.

وفاتـــه:

اختلف المؤرخون في تحديد وفاة الحصري، وانقسموا إلى فريقين:

١ـ **الأول** يرى أن وفاته كانت سنة ٤١٣هـ، وعلى رأسهم ابن رشيق في أنموذجه إذ يقـول: «مات بالمنصورة سنة ٤١٣هـ، وقد جاوز الأشدّ»[2]. وعنه نقل ياقوت العبارة نفسها[3].

٢ـ **وأما الفريق الثاني** فيرى أن وفاته كانت سنة ٤٥٣هـ، ومنهم ابن بسام في الذخيرة قال: «وكانت وفاته ـ فيما بلغني سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة»[4]. ووجدنا بعض المؤرخين ترددوا بين الرأي الأول والرأي الثاني، ومنهم ابن خلكان، فقد أشار إلى وفـاة الحصري سنة ٤١٣هـ، ثم ذكر عبارة ابن بسام السابقة، ولكن يبدو أنه

---

(١) انظر المرجع السابق للشويعر ص ٧٨.

(٢) شعراء القيروان ص ٢٠.

(٣) معجم الأدباء ٢/ ٩٤.

(٤) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٨٥.

يرجح الرأي الأول، يقول: «والأول أصح»[1]، أي سنة ٤١٣هـ.

ثم يقول: «وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب (الجنان) في الجزء الأول. أن الحصري المذكور ألف كتاب زهر الآداب في سنة خمسين وأربعمائة، وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بسام»[2].

وممن ذكر الرأيّين وتردد بينهما الصفدي إذ يرى أن وفاته سنة ٤١٣هـ، ثم ينقل رأي ابن بسّام والقاضي المذكور من الوفيات كما يذكر عبارة ياقوت[3].

ويبدو أنه مما رجح الرأي الثاني عند بعض المؤرخين تلك العبارة التي ذكرها القاضي الرشيد بن الزبير، والتي تشير إلى أنه ألف زهر الآداب سنة ٤٥٠هـ. وهذا الرأي مردود لأن الحصري نفسه نصّ على تأليف هذا الكتاب سنة ٤٠٥هـ[4] لا ٤٥٠هـ، ويبدو أن التاريخ الثاني حرّف سهواً مما أدىٰ إلى هذا اللبس كما أشار إلى ذلك حسن حسني عبد الوهاب[5].

ومما يدل على بطلان هذا الرأي أيضاً عدة أسباب لخصها الدكتور الشويعر[6] كما يلي:

١ـ إن المؤرخين مجمعون على وفاة الحصري في المنصورة، فكيف تكون وفاته في هذه المدينة سنة ٤٥٣هـ وقد خربت هي والقيروان سنة ٤٤٩هـ بأيدي الهلاليين ونزح منها سكانها ولم يبق فيها إلّا حثالة من الناس.

---

(١)، (٢) الوفيات ١/٥٥.

(٣) الوافي بالوفيات ٦/٦١، وقد ذكر حاجي خليفة الرأيين أيضاً في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ٢/٩٥٧، مكتبة المثنى، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) زهر الآداب ١/١٢٦، الحاشية، هامش رقم (٢) ـ تحقيق علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

(٥) انظر مجلة الثريا، عدد ٩ السنة الأولى ص٥ نقلاً عن الحصري للشويعر ص١٠٣.

(٦) انظر الشويعر ١/ ١٠٣ـ١٠.

٢ـ إذا صح الخبر عن تأليف ابن رشيق للأنموذج حوالي سنة ٤٢٠هـ، والذي نص أن الحصري قد مات فمعنى ذلك أنه مات يقيناً قبل سنة ٤٢٠هـ.

٣ـ وأمّا عبارة ابن رشيق في الأنموذج[١] «وقد كان أخذ في عمل طبقات الشعراء على ترتيب الأسنان وكنت أصغر القوم سناً» فهي تدل على بطلان الرأي الثاني أيضاً إذ إن ابن رشيق توفي سنة ٤٥٦هـ وكان أصغر القوم سناً، فلو كان الحصري مات سنة ٤٥٣هـ لكان ابن رشيق في هذا التاريخ قد جاوز عمره الستين فكيف يكون أصغر القوم سناً. فهو لا يمكن أن يكون أصغر القوم سناً إلّا في وقت يسبق عام ٤٥٣هـ بسنين كثيرة.

٤ـ كما أن تلميذ الحصري الآخر أبا طاهر التجيبي المتوفى سنة ٤٥٠هـ ذكر في كتابه «المختار من شعر بشار» ما يلي: «أنشدني إبراهيم الحصري لنفسه ـ رحمه الله ـ[٢] فهو ينص على وفاة الحصري قبل تأليفه الكتاب، وبذا يكون الحصري قد توفي قبل تلميذه أي قبل عام ٤٥٠هـ.

٥ـ ومما يرجح الرأي الأول أيضاً ـ أي وفاته عام ٤١٣هـ ـ أن ابن رشيق كان من خلطاء الحصري وتلاميذه، وفي بلده، فهو أعلم الناس بعام وفاته، ويوثق ذلك أن ياقوتاً والصفدي وابن خلكان نقلوا هذا الرأي عن ابن رشيق مباشرة مما يدل على امتلاكهم للأنموذج واطلاعهم عليه.

كما نلاحظ أن خراب القيروان على أيدي الهلاليين سنة ٤٤٩هـ قد ترك أثراً نفسياً واضحاً في معاصري هذا الحدث التاريخي كابن رشيق وابن شرف والحصري الضرير، ولكن لم نجد أدنى إشارة تدلنا على معاصرة أبي إسحاق لهذا الحدث وتأثره به، مما يقطع بأنه توفي قبل هذا التاريخ.

---

(١) شعراء القيروان ص١٩.

(٢) انظر المختار من شعر بشار ص ٨٩، ١٢٩، ١٥٧.

ثالثاً: مؤلفات الحصري

١ـ نبذة عن حركة التأليف في كتب الأخبار والأشعار الجامعة في عصر المؤلف:

نشطت حركة التأليف في كتب الأدب الجامعة[1] منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وكان الجاحظ أسبق المؤلفين إلى هذا النوع من المصنفات في كتابيه «الحيوان» و «البيان والتبيين»، الذي جمع فيهما ثقافات متنوعة، وأخباراً جمّة وأشعاراً غزيرة، واستطاع بأسلوبه الفذّ أن يجعل آثاره تنبض حياة على مر العصور، وفتح بذلك الباب على مصراعيه أمام مثل هذا النوع من المؤلفات الجامعة، فظهر كتاب «الكامل» للمبرد المتوفّى سنة ٢٨٥هـ، وكان أكثر تخصصاً بالثقافة العربية الصرفة وكل ما يتصل بها، إذ حشد فيه النماذج المختارة من الشعر الجميل والنثر البليغ والأحاديث المأثورة والأخبار الطريفة، وقد رمى فيه المبرد إلى تزويد القارىء بثقافة أدبية عربية متينة مع فوائد لغوية ونحوية.

وظهر في الوقت نفسه تقريباً كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ وكان كالجاحظ يجمع بين الثقافة العربية الصرفة وثقافات الحضارة الإسلامية الأخرى، ولذا تنوع تصنيفه بأنواع العلوم.

واستمرت حركة التأليف نشطة في القرن الرابع أيضاً، بل اتسع نطاقها واهتم بها أدباء المغرب والأندلس بعد أن لاقت كتب المشارقة لديهم رواجاً كبيراً، ولعل أشهر كتب الأدب في هذا القرن اثنان: «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي، وكتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، وقد أملاه في الأندلس بعد أن رحل إليها.

---

(١) انظر كتاب «نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب» د. أمجد الطرابلسي، من ص ١٣٢-١٧٢، مكتبة دار الفتح بدمشق ط٦، ١٩٧٦م.

وقد ألّف ابن عبد ربه كتابه على منهج «عيون الأخبار» وراعى فيه التنظيم والتبويب للمادة الأدبية بحسب معانيها العامة، وهذا الكتاب وإن ظهر في الأندلس إلا أنه لا يختلف عن كتب المشارقة، فمعظم أخباره وأشعاره من أدب المشرق، وهذا عائد إلى شدة إعجاب الأندلسيين آنذاك بالمشرق، وحرصهم على أن يحذوا حذو أدبائه ويؤلفوا عنهم وينقلوا أخبارهم وأشعارهم.

وأما كتاب الأمالي للقالي فهو من أمتع الكتب الأدبية وأغناها مادة، وأما طريقته فهي الطريقة نفسها المتبعة في تأليف هذا النوع من الكتب، من حيث الاستطراد المستمر وتنوع الموضوعات، وهو يقترب في صبغته العامة من كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، و«الكامل» للمبرد، ولم يراع فيه تبويباً أو تنسيقاً كما فعل ابن عبد ربه أو ابن قتيبة قبله.

ولا ريب أن كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني من أشهر كتب الأدب في القرن الرابع الهجري، وأحفلها بالمعارف، ولكن منهاجه يختلف عن منهاج مؤلفي الكتب السابقة، وهو يقترب في تنسيقه من كتب التراجم.

واستمر التأليف على هذا النحو، وظهرت مصنفات أخرى كثيرة كأمالي المرتضى وابن الشجري وغيرها، حتى جاء أبو إسحاق الحصري، وألف عدة كتب أغلبها يسير على هذا المنهج الأدبي الجامع الذي يأخذ من كل فن بطرف، ومن مؤلفاته: «زهر الآداب وثمر الألباب» وهو أشهرها وأضخمها، و«النورين» وهو يحذو حذوه، و«جمع الجواهر في الملح والنوادر»، و«المصون في سر الهوى المكنون»، وديوان شعر وغير ذلك[1].

٢ـ كتاب زهر الآداب وثمر الألباب:

قال ابن رشيق عنه: «وله تأليف جيد في ملح الشعر والخبر، صنعه بالقيروان،

---

(١) انظر معجم الأدباء ٢/٩٧، والوفيات ١/٥٤، والوافي ٦/٦١، وبروكلمان ١٠٥.

وجمع فيه أخبار أهل المشرق وكلامهم ووقائعهم أراد بذلك الإعجاز»[1].

وقال فيه ابن خلكان: «جمع فيه كل غريبة في ثلاثة أجزاء». وقد أشار ابن بسّام في الذخيرة إلى تشابه منهج الحصري ومنهج الجاحظ في الزهر إذ يقول: «عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب وثمر الألباب، فلعمري ما قصر مداه، ولا قصّرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر دون كلام العرب، لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلاّ من ضاق عنه الأمد، وأعمى بصيرته الحسد»[2].

فابن بسّام يعترف بقيمة الكتاب، وإنما يأخذ عليه اعتناءه بكلام أهل العصر دون كلام العرب، مع أن إيراد الحصري لكلام المعاصرين جعل الكتاب متميزاً عن غيره من المنتخبات الأدبية.

ويعد هذا الكتاب من أمهات كتب الأدب، يشير إلى ذلك الصفدي حيث يقول: «وهو مشهور من أمهات كتب الأدب، صنفه بالقيروان، وجميعه أخبار أهل المشرق وكلامهم ووقائعهم».

وقد ألّف الحصري هذا الكتاب سنة ٤٠٥هـ بطلب من كاتب ديوان الإنشاء أبي الفضل العباس بن سليمان الذي أتى من المشرق بعدد من المؤلفات المعاصرة. ويعترف الحصري بأن إسهامه فيه يقف عند حد الاختيار، فهو مختارات أدبية، يختار المؤلف أشعارها قصيرة ليمكن حفظها واتباعها كنماذج، والكتاب تنقصه الوحدة والتبويب الدقيق، والقصد من وضعه إمداد المتعلمين بثروة من جيد الشعر والنثر.

وهو مطبوع مرة بتحقيق زكي مبارك[3]، ومرة بتحقيق علي البجاوي[4]، ولزهر

---

(١) شعراء القيروان ص ١٩.

(٢) الذخيرة: القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٨٤.

(٣) صدرت الطبعة الأولى منه بتاريخ ١٩٢٥م.

(٤) صدرت الطبعة الأولى منه بتاريخ ١٩٥٣م.

الآداب مختصر اسمه (اقتطاف الزهَر واجتناء الثمر) تأليف الإمام أبي الحسن علي ابن محمد بن بري، وهو ما يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية.

وقد قام الدكتور الشويعر بدراسة «زهر الآداب» دراسة مفصلة أورد فيها النظرات والآراء النقدية التي تناثرت في أثنائه[1].

٣ـ كتاب نُور الطَّرف ونَوْر الظَّرْف، أو كتاب النورين:

وهو موضوع دراستنا مما سيأتي تفصيله.

٤ـ كتاب المصون في سرّ الهوى المكنون:

ذكره ابن رشيق، وأسماه ياقوت: «كتاب المصون والدر المكنون»، وذكره ابن خلكان وأشار إلى أنه مجلد واحد فيه ملح وآداب، وكذلك الصفدي، أما ابن بسام فسماه «المصون من الدواوين».

وهو كتاب يبحث في عاطفة الحب بصفة عامة، ألف في شكل حوار أجراه على لسان عاشقيْن، ويستشهد فيه بالكثير من الأشعار والأخبار من خلال هذا الحوار، يقول الدكتور الشويعر: «لم يكن هذا الحوار خيالياً إلّا في انتحال الشخصيتين فقط، لأنه حديث تقريري عن واقع الحب ومسائله كما تعارف عليه الأدباء والفلاسفة، وليس الكتاب حواراً من أوله إلى آخره، وإنما يكون الحوار تمهيداً لما سيسوقه من أخبار العشاق وأشعارهم»[2].

وبذا يعد هذا الكتاب أقرب إلى التخصص في موضوع واحد مخالفاً بذلك زهر الآداب والنورين، وقد طبع الكتاب حالياً بتحقيق محمد عارف حسين، كما أن الدكتور الشويعر قام بتحقيقه أيضاً وهو قيد الطبع.

---

(١) انظر الحصري للشويعر الجزء الأول والثاني.

(٢) انظر الحصري للشويعر ١/١٧٨، وذكر مقطعات منه في ص ١٤٢ـ١٧٩.

٥ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر:

قال ياقوت: «وله عندي كتاب» الجواهر في الملح والنوادر، كتبه عبد القادر البغدادي» ولم يذكره ابن بسّام وابن خلكان والصفدي.

ونشر هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة بعنوان «ذيل زهر الآداب»[1]، ثم بتحقيق البجاوي باسم «جمع الجواهر في الملح والنوادر»، وهو يختلف عن زهر الآداب والنورين بمادته المحدودة، فهو مجموعة من الحكايات والأشعار والأقوال في الفكاهة وحكايات المجانين، ولا يخرج عن حدود اللياقة.

٦ـ طيّبات الأغاني ومطربات القيان:

وهو كتاب مفقود، أشار إليه الحصري في كتابه جمع الجواهر، يقول: «كنت كتبت جزءاً مما قيل في طيبات الأغاني ومطربات القيان»[2]، ولا نعلم عنه سوى هذا الخبر.

٧ـ ديوان شعره:

ذكر ابن خلكان أنه له ديوان شعر، ولكنه لم يصل إلينا.

---

(١) انظر «ذيل زهر الآداب» تحقيق محمد أمين الخانجي، مصر ١٩٥٣م.

(٢) جمع الجواهر ص ٣١٧ ـ تحقيق علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٣م.

رابعاً: دراسة كتاب النورين

لقد قامت شهرة أبي إسحاق الحصري على كتابه الشهير «زهر الآداب وثمر الألباب»، الذي يعد من عيون التراث العربي.

ولعل شهرة هذا الكتاب، وما ناله من قبول لدى معاصري أبي إسحاق دفعاه إلى تأليف هذا الكتاب الذي سمّاه: «نُور الطرف ونَوْر الظرف».

وقد ألّف هذا الكتاب ـ كما يظهر من مقدّمته ـ بناء على طلب أحد الكبراء في عصره، إذ أرسل إلى المؤلف كتاباً يطلب منه أن يصنّف له مؤلفاً لطيفاً في الأدب، ولم يشر الحصري إلى اسم هذا الطالب الذي أهدىٰ إليه الكتاب بعد أن أتمه، ولكن يبدو أنه كان ذا مكانة مرموقة، يتضح ذلك من حديث الحصري عنه في مقدمة الكتاب، فهو يمدحه ويشيد بمآثره وعلمه، وبمكانة خطابه من نفسه، ثم يقول[1]: «أمرتَ فيه ـ أعلى الله أمرك وأسنى قدرك ـ قلباً لا يتقلب إلّا في طاعتك، وصبّاً لا يتصرف إلّا في مرضاتك، أن يمد يد الاختيار والاستجادة لما يقع منك بحسب الإشارة والإرادة، من تصنيف كتاب لطيف ينظم نظم العقود، ويرقم رقم البرود..»، ثم يقول: «فأجبتك إلى ما إليه أشرت، على ما أحببت وآثرت من غرائب العجائب..» ويختم إهداءه بقوله[2]: «فلعله يمر بك في تضاعيف هذا التأليف شيء تستندره، مما تؤثره، فيكون سعيي سعيداً، ويقع سهمي سديداً، ببلوغ الزلفى من حبك، والقربى من قلبك، وتلك أمنيتي حتى ألقى منيتي..».

وفي خاتمة الكتاب يعود إلى مدح المُهدَى إليه دالاً على أصله الرفيع وعلمه الغزير.

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٢ ب.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٣ ب.

وإذا كان الحصري لم يصرح لنا باسم من أهدى له هذا الكتاب فإنــه قد صرح في المقدمة بأن هذا الكتاب قد ألفه بعد كتابه الشهير «زهر الآداب وثمـر الألباب»، وأنه يشابهه ويحذو حذوه، كما أنه يحيل في بعض مواضع من النورين على زهر الآداب كقـولـه مثلاً بعد ذكره لمجموعة من الأبيات في النرجس والورد[1]: «وفي الكتاب الكبير من غيره ما اختير. .»، أو يقول: «وذلك مستوفى الإيعاب في كتاب زهر الآداب».

وإذا عرفنـا أنـه ألف زهر الآداب سنة ٤٠٥هـ كما نص على ذلك الحصري نفسه[2]، فإننا نستطيع أن نجزم بأن النورين قد ألّف بعد هذا التاريخ، أي بين سنة ٤٠٥هـ و٤١٣هـ، وهي سنة وفاة الحصري على الغالب.

وكان أول من ذكـر كتاب النورين ابن رشيـق إذ يقول: «واختصره ـ أي زهر الآداب ـ في جزء لطيف سمّاه نور الظرف ونور الطرف»[3].

ثم أشار إليه ابن بسّام وسماه كتاب «النُّور والنَّوْر»، وقال عنه: «ثم أخذ بعد ذلك في إنشاء التواليف الرائقة، والتصانيف الفائقة ككتاب النُّور والنَّوْر[4].

وأما ياقوت الحموي فقال عنه: «والذي أعرف أنا من تصانيفه كتاب زهر الآداب وكتاب النورين اختصره منها، وهما يتضمنان أخباراً وأشعاراً حساناً»[5].

وقـد نقـل ياقوت عن النورين في أكثر من موضع مما يدل على اطلاعه عليه بنفسه. كما أشار الصفـدي إلى هذا الكتاب وسماه كتسمية ابن رشيق «نور الظرف ونور الطرف»، وقال: «إنه جزء لطيف مختصر من الزهر»[6].

---

(١) مخطوطة النورين، الورقة ٢٠ أ.

(٢) انظر زهر الآداب ١/١٢٦ ـ الحاشية رقم (٢).

(٣) شعراء القيروان ص ١٩.

(٤) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني، ص ٥٨٤.

(٥) معجم الأدباء ٢/٩٧.

(٦) الوافي بالوفيات ٦/٦١.

وقـد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون باسم «نور الطرف ونور الظرف»، وقال: «إنه في جزء واحد»[1]، وأما بروكلمان فقد أشار إلى أنه مختارات شعرية قصيرة[2].

وقد ذهب الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إلى أن الحصري اختصر كتاب «النوريْن» من كتابه «زهر الآداب»، وتابعه في ذلك أغلب الباحثين المعاصرين الذين تناولوا آثار الحصري ومؤلفاته، معتمدين في ذلك على الإشارات السابقة لابن رشيق وياقوت والصفدي.

وبعد أن قمت بتحقيق الكتاب، وقابلت نصوصه الشعرية والنثرية بما ورد في زهر الآداب، تبين لي أن الجزء المختصر من زهر الآداب فيه يشكل حوالي ثلث الكتاب أو أكثر بقليل، ولا يعدّ كله مختصراً كما أشار الباحثون، على الرغم من أن الحصـري سار في النـورين على نهـج زهـر الآداب، وهـو يقـرر ذلك بقوله في المقـدمـة[3]: «قلت: أجعله كالمختصـر من الكتـاب الموسوم بزهر الآداب وثمر الألباب ليكون لما استعاره من حليه، ولبس من حلله، وأخذ من صفاته، وسلك من سبله كالأنموذج له، والمدخل إليه، والمعرف به..».

ويبـدو أن عبـارة المؤلف «أجعله كالمختصـر» هي التي أوهمت القدماء بأنه مختصـر فعلاً من زهر الآداب دون إضافة جديد، ولو أراد الحصري هذا المعنى لقال: «أجعله مختصراً». ويؤكد لنا ذلك أيضاً ما قدمناه من أن الرجل الذي أهدى إليه الحصري كتابه لم يطلب منه اختصار كتاب الزهر، وإنما طلب منه أن «يمد يد الاختيار والاستجادة» في سبيل «تصنيف كتاب لطيف، يُنظم نظم العقود..»، وقد استجاب الحصري لرغبة ولي نعمته فقال:[4] «فأجبتك إلى ما إليه أشرت، على ما أحببت وآثرت، من غرائب العجائب، وظرائف اللطائف، وجواهر النوادر، وقرنت

(١) كشف الظنون ٢/١٩٨٣.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٥/١٠٦.

(٣)، (٤) مخطوطة النورين الورقة ٣ أ.

الفصول بالأصول، وضممت الأشعار إلى الأخبار، ووشحته بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم، وأفراد أهل العصر».

ومما يؤكد ما أذهب إليه من أن كتاب النورين قد اختصر كتاب الزهر وأخذ منه اللباب ولكنه أضاف إليه الشيء الكثير مما ليس في الزهر ذاته قول الحصري[1]: «والنفوس قد طبعت على استطراف ما سمعت، مما لم يتكرر فيتكدّر، ويتوالى على الأسماع فتمجّه الطباع، وتتكرر روايته فتملّ حكايته. . ، وفيما ألقي إليك في هذا الكتاب الذي هو نُور الطرف ونَوْر الظرف المختار الكثير مما ليس في الكتاب الكبير، وإنما كان كالمخ من سبيكته، والمح من تريكته، لأنه يحذو حذوه، وينحو نحوه في ملاحة النثر ورجاحة الشعر، دون الاستلاب لنفيس مطارفه، والاجتلاب لنفوس طرائفه».

ومع أن الحصري ذكر في آخر المقدمة أنه عمد في كتاب النورين إلى الإيجاز وعدم الإسهاب فقال: «ولم أوغل في هذا الكتاب كما أوغلت في زهر الآداب وثمر الألباب» إلّا أن الجديد الذي أضافه مما لم يرد في زهر الآداب كثيرٌ جداً، ويكفي أن نذكر أن هناك نحواً من ٧٥٠ بيتاً في النورين لم ترد في زهر الآداب، معظمها لشعراء من المشارقة الذين لم تنشر دواوينهم بعد، عدا النصوص النثرية والأخبار الكثيرة التي لم ترد أصلاً في الزهر.

كما نلاحظ أن عدد فصول كتاب الزهر يقارب ١٣٧ فصلاً، لم يأخذ الحصري من عناوينها في النورين إلّا نحواً من ١٥ فصلاً فقط، كما أنه زاد فصولاً لم ترد في الزهر.

وهكذا نجد في كتاب النورين ذخيرة أدبية جمّة تستحق النشر وفق منهج التحقيق العلمي، ويكفي لبيان قيمة الكتاب أنه يشتمل على نحو من (١٤٥٠) بيتاً من الشعر والكثير من الأخبار والنصوص النثرية التي لم يرد معظمها في مظانه.

١ـ وصف مخطوطات النورين:

لقد اعتمدت في تحقيق كتاب النورين على ثلاث مخطوطات حصلت على

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٣ ب.

مصـوراتهـا بعـد عنـاء من مكتبـة الأسكـوريال، ومكتبة چوتا، ومكتبة السليمانية باستانبول، وبيانها كما يلي:

١ـ مخطوطة مكتبة الأسكوريال برقم ٢/ ٣٩٢:

وتشتمل على ٤٩ ورقة، ومسطرتها ١٩ × ١٣، ومتوسط الأسطر في الصفحة الواحدة اثنان وعشرون سطراً، وكتب معظمها بخط نسخ مغربي جميل، وضبطت بالشكل التام ضبطاً يقارب التمام، وكتب الصفحات الأخيرة منها بخط مغربي آخر أقل جودة وعناية بالضبط.

وفي هذه النسخـة نقص كبير، وبخاصة في أول المخطوطة، إذ لا نجد فيها المقـدمـة، ثم تبدأ الأوراق التالية لها مباشرة مما يقابل الورقة ٢٣ب في النسخة المعتمدة أصلاً، كما أن فيها اضطراباً شديداً في ترتيب الأوراق مع الكثير من البياض والخرم، وتبدو في هوامشها بعض التعليقات والتصويبات، ولم ترد إشارة في آخرها إلى اسم الكـاتب وتـاريخ النسـخ، وإن كانت تعـود ـ على المرجح ـ إلى القرن الخامس أو السادس الهجريين. وقد رمزت إليها بالحرف (ل).

٢ـ مخطوطة مكتبة چوتا برقم ٢١٢٩:

وقد ذكرها بروكلمان[1]، وتشتمل على ٩٨ ورقة، ومسطرتها ٢٢×١٥، ومتوسط الأسطر في الصفحة الواحدة سبعة عشر سطراً، وقد كتبت بقلمين مختلفين: خط نسخ مغربي يدل على قدم المخطوطة مع ضبط بسيط، وخط نسخ عادي دون عناية بالضبط أو النقط استدرك فيه صاحبه على ما يبدو أوراقاً ساقطـة من الأصل المغربي، فأعـاد كتابة تلك الأوراق وراجعها بنفسه، وتبدو هذه الأوراق متداخلة مع الأصل المغربي ولكنها أقل عدداً.

وتكثر في هذه النسخة الاستدراكات والتصويبات بخط الناسخين مما يدل على

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي ٥/١٠٦.

مراجعتها من قبلهما.

ويضع الناسخ الأصلي فواصل بين الجمل بهذا الشكل (. . .)، كما يبدأ الفقرة الجديدة بحرف كبير، وربما بلون مخالف، كما يكتب المد بطريقة خاصة نحو كلمة المرآة مثلاً يكتبها (المراءاة)، والمآثم يكتبها (الماءاثم)، وعليها تمليك غير واضح تماماً «أحمد. . الشافعي الأزهري ١١٨٦هـ»، ولم يذكر في آخرها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وإن كانت تبدو أقدم من نسخة الأسكوريال، وقد رمزت إليها بالحرف (ج).

٣ـ مخطوطة استانبول:

وهي مخطوطة كاملة وواضحة للكتاب، ولذا اعتمدتها أصلاً في النسخ، وتشتمل على ٧٤ ورقة، ومسطرتها١٤ × ١٠، ومتوسط الأسطر في الصفحة الواحدة ٢٢ سطراً، وهي مكتوبة بخط النسخ المعتاد مع ضبط بسيط، وناسخها الخليل بن الخليفة العزيز المكي، وقد تم الفراغ منها يوم الأربعاء السادس عشر من شهر رجب من شهور سنة اثنتين وثلاثين وألف ١٠٣٢هـ.

ويبدو في هوامشها بعض الاستدراكات والتصويبات بخط الناسخ نفسه، مما يدل على مراجعته لها، وعلى المخطوطة تمليكات أغلبها غير واضح، ومنها تمليك للحاج مصطفى صدقي، وتمليك «من تمليكات كاتبه الفقير إلى مولاه الأكبر مصطفى؟ بخط صديقه البرهان إبراهيم يوسف المهتار عفا الله تعالى عن الجميع، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شعبان من شهور سنة اثنتين وثلاثين وألف، أحسن الله ختامها».

وتمتاز هذه النسخة عموماً بأنها تنسب الأبيات إلى أصحابها في حين أن (ج) و (ل) قصّرتا في ذلك أحياناً. ويلحظ في خط نسخة استانبول ما يلي:

١ـ يهمل الناسخ الهمزة في الغالب، ويسهلها في بعض الأحيان في نحو: الرؤوس يكتبها الروس، الكؤوس: الكوس، تكافؤ: تكافوا، سأم: سيم.

وقـد يكتبها أحياناً نقطتين في مثل جاءه يكتبها جا:ه، أو نقطة واحدة في نحو ردائي: ردابي، أو تكتب خطاً وفوقه نقطة في مثل: يقرأ: يقران، غناء: غنان.

٢ـ يكتب المد ألفين في نحو مرآة: مراااة، آثرتني: االثرتني.

٣ـ ينقط المقصور دائماً نحو فتى: فتي.

٤ـ يضع الألف الفارقة مع غير واو الجماعة مثل: أغدوا، أصبوا، تطفوا.

٥ـ يحـذف الألف المتـوسـطة من أسمـاء الأعـلام في مثل سليمان والقاسم وإسماعيل، تكتب: سليمن والقسم وإسمعيل.. إلخ.

وقد نسب الكتاب في الورقـة الأولى من المخطوطة وهماً لأبي الحسن علي ابن عبـد الغني الحصـري، وهو ابن خالة الحصري أبي إسحاق، وهو المعروف بالحصري الضرير، والمؤرخون دائمو الخلط بينهما، وقد نسب زهر الآداب إليه من قبل في إحدى مخطوطاته. وقد رمزت إلى هذه المخطوطة التي اعتبرتها أصلاً بالرمز (س) أو بكلمة (الأصل).

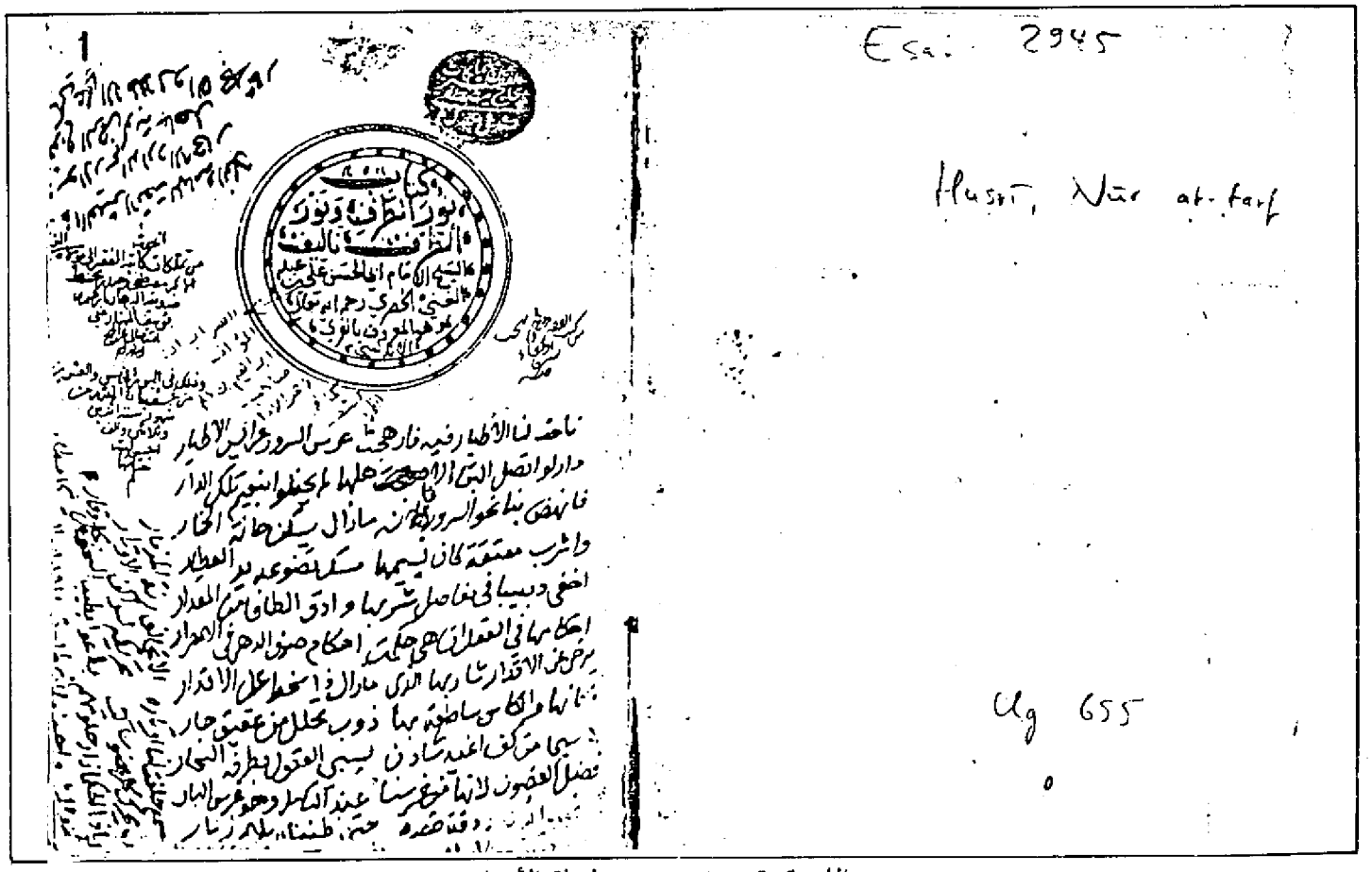

اللوحة رقم (١) من مخطوطة الأصل

اللوحة رقم (٢) من مخطوطة الأصل

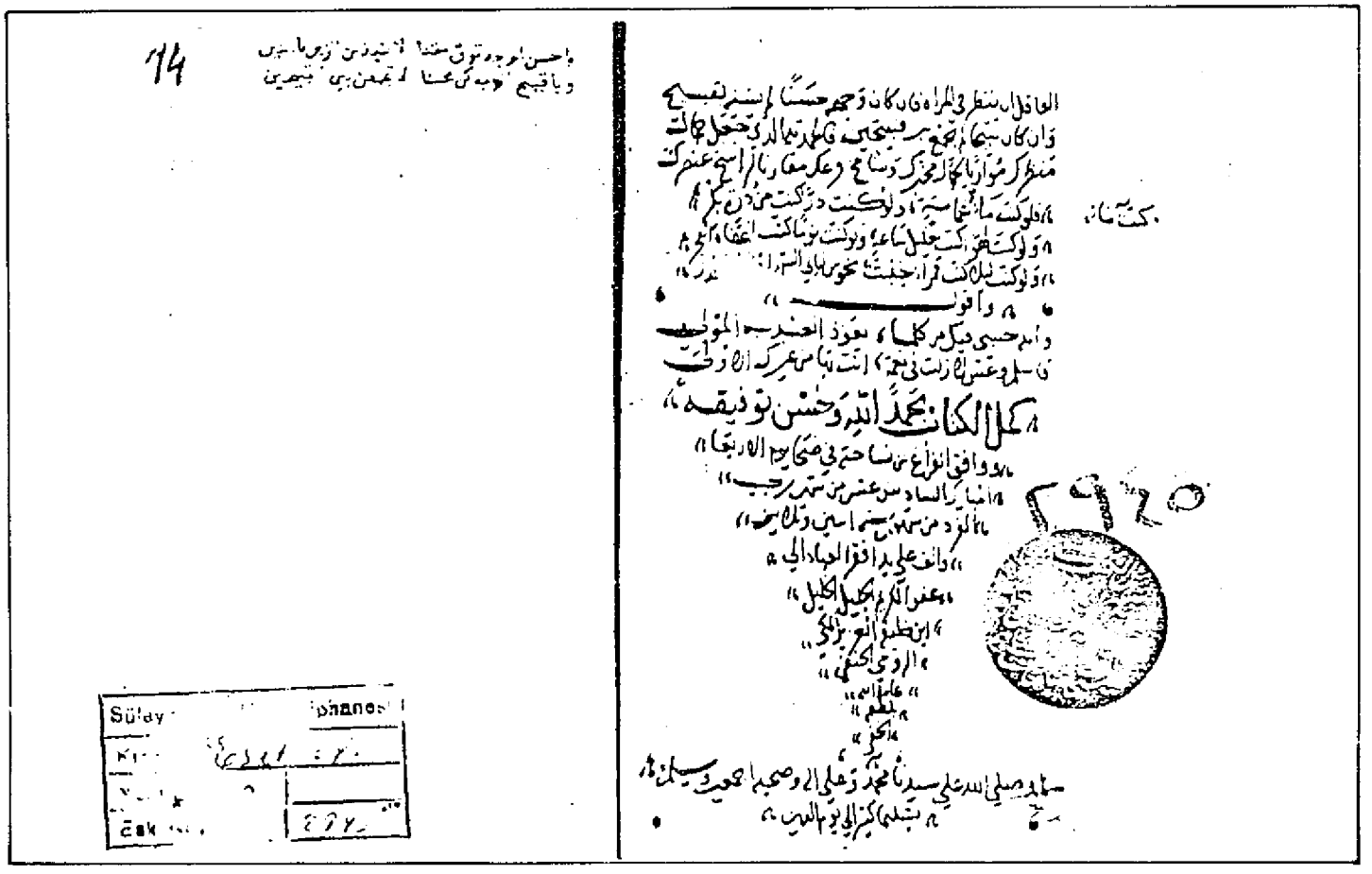

اللوحة رقم (٣) من مخطوطة الأصل

اللوحة رقم (٤) من مخطوطة الأصل

٢ـ مصادر الكتاب:

تظهر لنا ثقافة الحصري وسعة اطلاعه من خلال كتبه ومؤلفاته، وهي ثقافة واسعة غزيرة استقاها في الغالب من قراءاته الكثيرة واطلاعه على أمهات الكتب، وبخاصة المشرقية حين عمل مع الوراقين على نسخها. وقد توافر له من هذا العمل مصدر كبير من مصادر الثقافة، التي كانت منافذها محدودة آنذاك، وساعده على ذلك حافظته القوية وموهبته الفذّة في الجمع والتحصيل.

وإذا نظرنا بوجه خاص إلى المصادر والعيون التي اغترف منها مادته الغزيرة في كتاب النورين، وهي مادة مشرقية جمة، نجد أن محفوظاته وحصيلته الأدبية قد هيأتا له مصدراً رئيساً من المصادر التي نقل عنها وانتفع بها، كما أن ما لخصه من كتابه «زهر الآداب وثمر الألباب» من الأشعار والأخبار يشكل أكثر من ثلث الكتاب، ومصادر كتابه زهر الآداب[1] هي مصادر كتاب النورين لاتفاق منهج الكتابين ونوعية مادتيهما، وكان الحصري قد صرّح في الزهر أنه ألفه ليستغني به الأمير أبو الفضل العباس بن سليمان عن سائر كتب الأدب، كما صرح في مقدمته بالمصادر التي استفاد منها، يقول: «إذ كان موشحاً ـ أي كتاب الزهر ـ من بدائع البديع ولآلىء الميكالي، وشهي الخوارزمي، وغرائب الصاحب ونفيس قابوس، وشذور أبي منصور ـ يريد الثعالبي»[2].

وهذه المواد بعينها استفاد منها في النورين في هيئة أشعار ورسائل وأقوال مأثورة.

وهناك روافد أخرى استمد منها الحصري مادة النورين المشرقية، ونستطيع تقسيمها كما يلي:

---

(١) انظر مصادر الزهر في الحصري للشويعر ١/٢٣٢.

(٢) انظر مقدمة زهر الآداب ١/٢.

١ـ المشافهـة :

فقد نقل بعض الأخبار والأشعار عن مصدر مباشر مشافهة دون ذكر اسم الناقل أو الراوي، نحو قوله عن أبي بكر الخوارزمي : «أخبرني من رآه بنيسابور، وقد كظّه الشراب فطلب فقاعاً فلم يجده فقال ـ لعن من قال ـ :

إذَا أَعْـوَزَ الـفُـقَّـاعَ لمـا طَلَبْـتُـهُ هَجَـوْتُ عَتيقـاً والـدَّلامَ ونَعْثَـلا[1]

ونحو قوله عن ابن وكيع : «أخبرني بعض المصريين قال : كان ابن وكيع يهوى غلاماً نصرانياً بتنّيس، فلامه فيه بعض إخوانه وقال له : مكانك من العلم والأدب . . إلى آخر الخبر»[2].

ونحـو نقله أشعـاراً لعلي بن يونس المنجم أخذها مشافهة يقول : «أنشدني له بعض المصريين يصف قينة :

غنّـت فأخـفـتْ صوتَـهـا في عودِهـا فكـأنّمـا الصـوتـانِ صوتُ العـودِ

إلى آخر الأبيات.

ثم يقول : «وأنشدني ـ أي الراوي نفسه ـ في غلام يهواه قوله :

يجـري الـنـسـيمُ على غِلالَـةِ خَدِّهِ وأرقُّ منـه ما يَمُـرُّ عليهِ

إلى آخره»[3].

٢ـ مصادر يصرح بالنقل عنها دون ذكر اسمها :

وذلـك في نحـو قولـه عن مؤلفـات الثعـالبي : «ولـه مصنفات كتب في العلم

---

(١) انظر مخطوطة النورين ورقة ١٦ ب.

(٢) انظر مخطوطة النورين الورقة ١١ ب.

(٣) انظر مخطوطة النورين الورقة ١٨ ب، و ١٩ أ.

والأدب، تشهد له بأعلى الرتب، وكل ما أحكيه من ألفاظ أهل العصر غير منسوب لقائله فمستخرج من تأليفه، ومأخوذ من تصنيفه»[1].

ومن خلال تحقيقي للكتاب تبين لي فعلاً أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على مؤلفات الثعالبي وبخاصة كتابة «يتيمة الدهر»، فهو في الغالب عندما يقول: «قال بعض أهل العصر» من الأشعار دون تسمية القائل يكون قد نقلها عن اليتيمة، وأما الأقوال المأثورة التي اختارها من كلام الأدباء المعاصرين من أهل المشرق، والتي جعلها فصولاً نحو: «ألفاظ لأهل العصر في وصف ليالي الأنس، أو في وصف الربيع وحسن منظره» فمعظمها مستمد من كتاب الثعالبي «سحر البلاغة وسر البراعة» و«من غاب عنه المطرب» إذ نقل منه على ما يبدو فصولاً مشابهة، نحو الفصل الذي سماه «في تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الأشراف»[2]، ونجد في اليتيمة فقراً من هذه الفصول أيضاً.

وأما الفصل الذي سمّاه «من مقطعات تجري من شعرهم في التمثيل والمحاضرات في معان مختلفة»[3] فمعظمه مستمد على ما يبدو من كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي.

وربما اطلع على مؤلفاته الأخرى التي سارت بها الركبان كالإيجاز والإعجاز وثمار القلوب ولطائف اللطف وغيرها.

٣ـ مصادر لم يصرح بنقله عنها:

وقد استطعنا التعرف إلى هذه المصادر من خلال تخريج النصوص في أثناء التحقيق، إذ نجدها منقولة بنصها.

---

(١) مخطوطة النورين ٤٩ ب.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٢١ أ، وانظر «من غاب عنه المطرب» لأبي منصور الثعالبي ص٣٢ ـ تحقيق د. النبوي عبدالواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى. ١٩٨٤م.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٣١ أ.

وهـذه المصـادر بالطبع مصادر سابقة للنورين مثل دواوين الشعراء الذين نقل عنهم، فمن الواضح أنه اطلع على الدواوين بنفسه اطلاعاً أتاح له فرصة الموازنة بين الشاعر وغيره في معنى واحد، أو بين عدة أبيات للشاعر تدور حول المعنى نفسه، ونجـد ذلـك على الأخص عنـد ابن الرومي وابن المعتز اللذين احتفلا بها احتفالاً كبيراً، وكثيراً ما يعقد موازنات بينهما وبين عدد من الشعراء.

يقـول مثلاً[1]: «أكثر ابن الرومي من هذا المعنى..»، ويقول بعد ذكر أبيات لقابوس بن وشمكير[2]: «أما بيته الثاني فمن قول ابن الرومي..» ويذكر لابن الرومي أبياتاً في المعنى نفسه.

والأمثلة على ذلـك كثيرة نسوق منها ما نقله من خبر عن أبي فراس الحمداني وسيف الدولة مع ظلوم الشهرامية وابن المنجـم[3]، فقد ورد الخبر بنصه في ديوان أبي فراس رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه مما يدل على اطلاع الحصري على هذه النسخة في الغالب[4].

ويؤيد ذلك نقله ما كتبه أبو فراس لسيف الدولة وقد قفل من غزاة: «كتابي ـ أطال الله بقاء مولاي الأمير ـ من منزلي، وقد وردته ورود السالم الغانم.. الخ» واستحسان سيف الدولة بلاغته ثم أبيات أبي فراس في مدح الأمير، كل ذلك نجده بالنص ذاته في ديوان الحمداني[5] بروايته السابقة.

ومن ذلك أيضاً نقلـه عن عمر بن علي المطّوّعي خبراً طويلاً له مع الأمير أبي

---

(١)، (٢) مخطوطة النورين الورقة ١١ أ.

(٣) انظر مخطوطة النورين الورقة ٤٠ ب.

(٤) انظر مخطوطة النورين الورقة ٤٠ ب، وديوان أبي فراس ص١٨٠، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(٥) انظر مخطوطة النورين الورقة ٤٠ ب، وديوان أبي فراس ص ٢٧٧.

الفضل الميكالي، وجدناه بنصه في كتاب المطوّعي «دَرْج الغرر ودُرْج الدرر»[1]، مما يدل على اطلاع الحصري على هذا الكتاب ونقله عنه، كما ينقل عنه أخباراً وأشعاراً أخرى للأمير الميكالي.

ويقول محقق الكتاب الأستاذ جليل العطية عن ذلك في مقدمة درج الغرر[2]: «ويأخذنا العجب لوصول كتابنا ـ أي درج الغرر ـ إلى القيروان، ويزداد عجبنا عندما نعلم أن الحصري فرغ من تصنيفه ـ يقصد زهر الآداب ـ سنة ٤٠٥هـ، وهذا يعني أنه اطلع عليه بعد وقت قصير من ظهوره في نيسابور أقصى المشرق»، ثم يشير إلى أن الأمير أبا العباس الفضل بن سليمان قد ارتحل إلى المشرق، وربما كان هذا الكتاب من جملة النفائس التي جلبها معه إلى القيروان.

٤ـ قسم لم يصرح فيه بالنقل عن مصدر أو كتاب معين، ولكن نجده ينقل عن أسماء لامعة لمؤلفين معروفين كالأصمعي والجاحظ والمبرد وابن دريد وأبي بكر الأنباري والرياشي وابن فارس وغيرهم من أعلام اللغة والأدب فيحتمل أنه رجع إلى كتبهم مباشرة، أو أنه رجع إلى كتب تنقل عنهم، كأن يذكر خبراً للأصمعي ورد في أحد كتب الجاحظ مثلاً وهكذا..

وهذا القسم هو الأغلب الأعم، ولا يؤاخذ الحصري على عدم التصريح أو الإشارة إلى المصدر الذي نقل عنه، لأنه يجري على منوال المؤلفين في عصره، وأمثلة هذا القسم كثيرة، منها:

١ـ يذكر أخباراً عن الجاحظ منها: «قال الجاحظ يصف كلام النبي ـ ﷺ ـ استعمل التوسط وهجر الغريب..»[3]

---

(١) انظر مخطوطة النورين الورقة ٥٧ أ، ودرج الغرر ودرج الدرر لعمر بن علي المطّوعي ص١٢٢ ـ تحقيق جليل العطية، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

(٢) درج الغرر ص ١٦.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٥ أ.

ويقول أيضاً: «قيل للجاحظ من أشعر المحدثين قال: الذي يقول: وأنشد أبياتاً لأبي نواس»[1]، و«قال الجاحظ: وجدنا المعاني تقلّب. . . الخ»[2].

٢ـ يقول المؤلف: «وقد أنشد هذين البيتين ـ وهما لابن بسّام ـ أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري قال: أنشدني علي بن سليمان السلمي لنفسه[3]. . . ».

ويقول نقلاً عن أبي بكر الأنباري أيضاً: «قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: أنشدني إسماعيل بن إسحاق القاضي هذه الأبيات، ويذكرها»[4]. فمن المحتمل أنه اطلع على مؤلفات الأنباري نفسه أو نقلها عن مصدر آخر.

٣ـ ينقل كثيراً من أخبار الخلفاء وأولادهم، عن مؤلفات الأصمعي أو عن الأغاني للأصفهاني أو أشعار أولاد الخلفاء للصولي وغيرها.

٤ـ ينقل رسائل لقابوس بن وشمكير لم ترد في أي مصدر من المصادر التي رجعت إليها، وأولها مجموع رسائله «كمال البلاغة»، وقد يكون نقلها عن كتاب معروف آنذاك ثم فُقِد من بعد.

٥ ـ يقول: «قال العباس بن الفرج الرياشي: سمعت الأصمعي يقول: أحسن ما سمعت في وصف الثغر قول ذي الرمة. . »[5].

٦ـ يقول: «قال أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: قال لي الرشيد: هل تعرف كلمات جامعات. . الخ»[6].

ويقول: «قال الأصمعي: دخلت على الرشيد وعنده جماعة يتذاكرون رقيق الشعر. . الخ»[7].

٧ـ يقول المؤلف: «وأنشد أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ولم يسم

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٢٦ب.
(٢) مخطوطة النورين الورقة ٦٤ ب.
(٣) مخطوطة النورين الورقة ٥ ب.
(٤) مخطوطة النورين الورقة ٦٤ ب.
(٥) مخطوطة النورين الورقة ٦٨ ب.
(٦) مخطوطة النورين الورقة ١٥ أ.
(٧) مخطوطة النورين الورقة ٦٠ أ.

قائله . . » ثم يقول: «قال ـ أي ابن فارس ـ وهذا ضد قول الآخر . . »[1].

وفي موضع آخر يقول: «وأنشد أبو الحسين أحمد بن فارس في مثل هذا المعنى . . »[2].

فربما اطلع على مؤلفات ابن فارس كالمجمل وفقه اللغة وغيرها ونقل عنها.

٨ـ يقول: «قال أبو محمد عبد الله بن درستويه النحوي: قال لي البحتري يوماً . . »[3] ويذكر مناقشة جرت بينه وبين البحتري والمبرد.

فربما اطّلع على مؤلفات ابن درستويه: «الكتّاب» أو «معاني الشعر» أو غيرها.

٩ـ يقول: «قال ابن المرزبان: إذا انصرف ـ ابن المعتز ـ عن بديع الشعر إلى رفيع النثر . . الخ».

١٠ـ نقل خبراً عن الحسن البصري وارداً في البيان والتبيين للجاحظ والفاضل للمبرد.

١١ـ يقول: «ذكر أحمد بن الطيب السرخسي أن النعمان بن المنذر أهدى إلى كسرى . . »[4]، فلعلّه اطلع على شيء من كتب السرخسي وبخاصة «الجلساء والمجالسة».

١٢ـ يقول: «كان أبو القاسم الصاحب بن عباد يقول: بدىء الشعر بملك وختم بملك . . »[5]، وهو على الغالب اطلع على مؤلفات ابن عباد كما أشار في مقدمة زهر الآداب وثمر الألباب، أو نقل أقواله عن الثعالبي.

١٣ـ يقول: «قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قال رجل من بني فَزارة . . »[6].

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ١٧ ب.
(٢) مخطوطة النورين الورقة ٤٨ أ.
(٣) مخطوطة النورين الورقة ١٨ أ.
(٤) مخطوطة النورين الورقة ٣٨ أ.
(٥) مخطوطة النورين الورقة ٤٠ أ.
(٦) مخطوطة النورين الورقة ٤٧ أ.

وكثيرة هي الكتب التي روت عن أبي عبيدة.

١٤ـ يقـول معلقـاً على أبيات: «وقد أنشدهما الصولي ـ أبو بكر ـ لمحمد بن أحمد الأصبهاني..»[١]، فلعله قرأ أدب الكتّاب أو أشعار أولاد الخلفاء أو أخبار أبي تمام.

١٥ـ يقول: «قال عمر المطّوّعي، ويذكر له حادثة مطولة مع الأمير الميكالي، وقد وردت هذه الحادثة بنصها في كتاب المطّوّعي «درج الغرر ودرج الدرر»[٢]، مما يدل على اطلاعه عليه، وكان قد سبق وأشار في الزهر إلى هذا الكتاب.

١٦ـ من المؤكد أنه اطلع على كثير من دواوين الشعراء آنذاك.

نقل على سبيل المثال خبراً عن أبي نواس وجماعة من أصحابه ورد بالنص نفسه في ديوان أبي نواس، يقول: «خرج أبو نواس مع بعض إخوانه إلى المدائن، فدخلوا إيوان كسرى فوجدوا فيه آثار شرب.. الخ»[٣].

١٧ـ يذكر أخباراً عن الأعراب دون ذكر اسم القائل، أو تبيان المصدر الذي نقل عنه ويكتفي بقوله: «قال أعرابي»، أو ينقلها عن بعض الرواة دون تسمية أيضاً نحو قولـه: «قـال بعض الـرواة: أنشـدت أعرابياً قول جرير بن عطية الخطفَى..»[٤]، وأحياناً يذكر اسم الراوي نحو قوله[٥]: «قال أبو المقدام الأسدي: سالت علينا سائلة من طيّىء.. الخ».

وخلاصة القول أن مصادر الحصري المشرقية تنوعت بين ما يأخذه مشافهة وبين

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٥٩ أ.

(٢) انظر مخطوطة النورين الورقة ٥٠ أ، ودرج الغرر ص ١٢٢.

(٣) انظر مخطوطة النورين الورقة ٦٤ أ، وديوان أبي نواس ٣٦١ ـ تحقيق محمود كامل فريد، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٦م.

(٤) مخطوطة النورين الورقة ٥٧٦ ب.

(٥) مخطوطة النورين الورقة ١٣ أ.

ما قرأه واطلع عليه. وهـذا النـوع الأخير هو الأغلب والأعَم، ولا نؤاخـذ الحصـري في إغفـاله الأسانيد أو أسماء الكتب التي نقل عنها، لأن هذه طريقة مؤلفي عصره من جهة، ولأن هدفه من جمع هذه المادة الغزيرة ونثرها في هذا الكتاب دون تصنيف أو تبويب أو اهتمام بذكر المصادر كان إمتاع القارىء ومساعدة الناشئة من الكتاب في الأخذ بعنان الأساليب البلاغية كما يصرح بذلك في خاتمة كتابه.

وأما المادة الأدبية المغربية من أشعار وأخبار فهي قليلة جداً، وهذا مستغرب من مؤلف جليل كالحصري، عاش عصر ازدهار القيروان بخاصة، وإفريقيةبعامة، إلّا أن هدفـه على ما يبـدو لم يكن تدوين نمـاذج من الأدب المغربي، وإنما نقل المادة المشـرقية للمغاربة للإفادة منها كما فعل ابن عبد ربه في «العقد الفريد» من قبله، وهكـذا غدت مؤلفـات الحصري بعد ذلك بمثابة صلة وصل نقلت آثار المشرق، وخاصة أدب المحدثين إلى المغرب ومنها إلى الأندلس، ولاقت لدىٰ معاصريه قبولاً كبيراً، ونال بها شهرة خلدته.

وإذا نظرنا في محتوى المادة المغربية القليلة في كتابه وأهم مصادرها، نجد أنه لم يذكر سوى نصين لابن هانىء الأندلسي، وآخريْن لعبد الكريم النهشلي، ونصٍ واحدٍ لعلي بن محمد الإيادي، وهذا قليل جداً بالنسبة إلى مجموع أشعار الكتاب (١٤٥٠) بيتاً، أما عن النصوص النثرية وأخبار أهل القيروان والمغرب عامة والأندلس فلا نجد خبراً واحداً عن ذلك.

وهذه النصوص الخمسة السابقة استقاها ولا شك من بيئته إذ كان هؤلاء الثلاثة ـ ابن هانىء والنهشلي والإيادي ـ من أشهـر شعـراء المغرب والأندلس آنذاك، ولا شك أنه حفظ الكثير من أشعارهم، واطلع على دواوينهم، وربما التقىٰ بهم وأخذ عنهم مباشرة لمعاصرته لهم.

٣ـ منهج الحصري القيرواني في كتابه «النورين»

أولاً: منهج الحصري في جمع الأشعار والأخبار:

ينهج الحصري في كتابه «نور الطرف ونور الظرف» نهج كتابه السابق «زهر الآداب وثمر الألباب»، كما يصرح هو في خطبة الكتاب موضحاً منهجه الذي سيسير عليه، يقول[1]: «وقلت: أجعله كالمختصر من الكتاب الموسوم بزهر الآداب وثمر الألباب، الذي ضمنته كل لطيفة، ونظمته بكل طريفة، . . ليكون لما استعاره من حليه، ولبس من حلله، وأخذ من صفاته، وسلك من سبله كالأنموذج له، والمدخل إليه، والمعرّف به، والمنبّه عليه، فيكون المطلع على أغراضه ومقاصده، والمتصفح لمصادره وموارده، كالعارف بما في ذاك، والواقف على ما هناك، فقديماً دلت الأوائل على الأواخر، وعرفت البواطن من الظواهر».

ويشير إلى أن اختياره لهذا المنهج كان بناء على طلب المُهدَى إليه بأن يصنف له كتاباً لطيفاً، يجمع فيه مختارات شعرية ونثرية، يقول: أمرتَ فيه ـ أعلى الله أمرك ـ قلباً لا يتقلب إلّا في طاعتك، وصَبّاً لا يتصرف إلّا في مرضاتك، أن يمد يد الاختيار والاستجادة. . من تصنيف كتاب لطيف ينظم نظم العقود، ويرقم رقم البرود، في مقطعات أدب كقراضة الذهب، من شذور منثور، وعيون موزون. . الخ».

وقد أجابه الحصري إلى ذلك، يقول موضحاً طريقته[2]: «فأجبتك إلى ما إليه أشرت، على ما أحببت وآثرت، من غرائب العجائب، وظرائف اللطائف، وجواهر النوادر، وقرنت الفصول بالأصول، وضممت الأشعار إلى الأخبار، ووشحتها بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم والنثر من أفراد أهل العصر الذين قهروا السابقين، وبهروا اللاحقين، بكريم عنصر البلاغة. . ».

---

(١)، (٢) مخطوطة النورين الورقة ٣ أ.

وهذه العبارة ترسم لنا المنهج العام الذي قرره الحصري لنفسه، وسار عليه في كتابه في جمع الأشعار والأخبار.

فقد طمح الحصري في النورين إلى التنويع الأدبي بذكر النوادر والطرائف من الأشعار والأخبار مما لم يكثر دورانه بين الناس، ولذا اعتنى باختيار نصوصه من أشعار المحدَثين، وابتعد عن الأدب القديم لسيرورته بين الناس، وقد التفت إلى الغريب والجديد بخاصة في معاني المحدثين شعراً ونثراً، مما يدل أيضاً على نظرة نقدية إيجابية لأدب المحدثين مع بداية تغير موقف النقاد الصارم تجاهه، بل لقد بالغ في وصفه لهؤلاء المحدثين بقوله[1]: «قهروا السابقين وبهروا اللاحقين..».

ويؤكد الحصري ميله إلى اختيار الجديد والطريف بقوله[2] «والنفوس قد طبعت على استطراف ما سمعت، مما لم يتكرر فيتكدّر، ويتوالى على الأسماع، فتمجه الطباع، وتكثر روايته فتمل حكايته..»، فهو إذن يتعمد الابتعاد عما ألفه الناس دفعاً لملل القارىء وسأمه.

كما يؤكد الحصري في مقدمته أن عمله ونهجه هو مجرد الاختيار حسب الذوق الشخصي، ويشير إلى أهمية حسن الاختيار، وإجادة العرض يقول[3]: «وإنماهي ـ أي نصوص كتابه ـ فروع تنتزع وتنقل، لا أصول تخترع وتوصل، وليس للناقل من الفضل أكثر من تجويد النقل..»، ثم يذكر أقوالاً مأثورة عن أهمية حسن الاختيار ودلالته على شخصية المؤلف وثقافته[4].

ولكن أهم ما يصرح به المؤلف في مقدمته أنه تعمد الاختصار وعدم التنسيق والتبويب للكتاب، أي أن الاستطراد والتنويع وخلط الموضوعات هو منهج مقصود لذاته، لدفع الملل عن القارىء وإمتاعه وتشويقه بهذا التنويع، يقول[5]: «ولم أوغل في هذا الكتاب.. إذ لو توفرت في التصريف على ما يوجبه التصنيف في تلك

---

(١)، (٢) مخطوطة النورين الورقة ٣ ب.

(٣)، (٤) النورين الورقة ٤ أ. (٥) مخطوطة النورين الورقة ٤ ب.

التصـاريف لأخللت بالإحسـان في الافتنـان، فنثرت ما سطرت على غير تبويب، وجمعت ما صنفت على غير ترتيب، وذلك أقرب لنشاطك، وأوجب لانبساطك. .»، ثم يؤكـد وجهـة نظره بقـولـه: «وقـد خفت أن أخـرج بصـدر الكتـاب إلى معيب الإسهاب»، ويؤكد في أكثر من موضع في الكتاب أن نهجه الاختصار وعدم الإطالة، يقـول مثـلاً[1]: «وليس يتسـع هذا الاختصار إلى إطالة الاختيار فتقف على طريقة المقارنة، وتعرف حقيقة الموازنة وذلك مستوفى الإيعاب في كتاب زهر الآداب».

ويقول في موضع آخر[2]: «والشعر في هذا الباب أكثر من أن يكثر به الكتاب، ولكني سأنشدك يسيراً وأترك كثيراً، ويضيف في آخر المقدمة اعتذاراً عما يخرج عن شرطـه في حسن الاختيار من نصـوص الكتـاب، معتـزاً في الوقت نفسه بحصيلته الأدبية، ومشيراً مرة أخرى إلى منهجه في عدم التبويب والتنسيق المسبق، يقول[3]: «ولعل ما تركت أولى مما أدركت، إذ كان قليلاً من كثير، وثماداً من بحور، ولكن إذا لم يخص المؤلف وجهاً يقصده ولا فناً يعتمده ـ كما فعل هو ـ، فكل الكلام تمتد إليه حبـالـه، وتنثال عليه رماله، فإنما حقه انتقاء ما اتصل بناظره، واقتفاء ما وصل إلى خاطـره. .». ولعـل العبـارة الأولى من هذه الفقرة تدل على أنه كتب المقدمة بعد الانتهاء من الكتاب فعل الباحثين المعاصرين.

وينص الحصـري على حذف الأسانيد كمنهج يتبعه وينبّه عليه منذ المقدمة، لأن هدفـه هو النص الممتع، يقول: «وأنا أحذف أسانيد ما رويته، وآتي بمتون ما رأيته، إذ هي الغرض المطلوب من استمالة القلوب. .».

هذا ما صرح به الحصـري عن طريقتـه ومنهجـه في جمـع الأخبـار والأشعار وعرضها. ونحن إذا نظرنا في نصوص الكتاب نجد أن الحصري اختارها فعلاً بعناية فائقة حسب ذوقه الشخصي من جهة، وحسب مفهوم البلاغة الأدبية في عصره من جهة ثانية، وتتضح لنا طريقة الحصري في اختيار النصوص وعرضها بالنظر في أهم

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٦٧ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٦١ أ.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٤ ب.

الملامح المنهجية التي استنتجناها من كتاب النورين، والتي تقترب اقتراباً بيّناً من خطاه في «زهر الآداب وثمر الألباب»، ونجملها كما يلي:

١ـ نجد أن المؤلف قد يرتب الموضوعات أحياناً في سياق واحد، ولكن دون تسمية فصل أو باب، وتارة أخرى يكثر من الاستطراد دون مراعاة السياق، وكل ذلك مقصود لذاته ـ كما أشرنا ـ لإمتاع القارىء ودفع الملل والسأم عنه.

وأما طريقته في الترتيب وعرض الموضوع، فهو عندما يصل إلى موضوع الغناء مثلاً، يبدأ بذكر صفات المغني الجيد على لسان إسحاق الموصلي، ثم أبيات لكشاجم في المعنى نفسه، تدور حول حسن الصوت واللحن والعزف. ثم يشير إلى أهمية اختيار المغني للأبيات والمعاني التي تصلح للغناء، ودواعي الاستماع إلى الغناء الجميل عن طريق بعض الأخبار، ثم يذكر رأيه الخاص في الغناء وشروطه، مع أمثلة شعرية توضح رأيه، وأخيراً يعقد فصلاً لأهل العصر في الغناء وحسنه، ثم ألفاظهم أيضاً في ضد ذلك. ويتبع الطريقة نفسها في عدة موضوعات أخرى مثل «أوصاف النساء»، و«أوصاف الغلمان» وموضوع «النبيذ».. وغيرها. فهو غالباً يبدأ فيها بالشعر ويتبعه بالأخبار، ثم فصول لألفاظ أهل العصر في الموضوع نفسه، وأحياناً يعكس هذا التسلسل بالترتيب.

وأما الاستطراد فأمثلته كثيرة جداً، يلمسها قارىء الكتاب بسهولة، ولا ينبّه الحصري قارئه إذا عاد من استطراده إلى الموضوع الأصلي، ويغلب على استطراده تحري المناسبات أو الجري وراء تداعي الخواطر.

ونذكر على ذلك مثالاً: فهو عند ذكره أشعاراً للصاحب بن عباد يصل إلى قوله(١):

قَال لي: إنّ رَقَيْبِيْ سيءُ الخُلْق فدارِهْ
قلتُ: دعني، وجهُكَ الجَنَّةُ حُفَّتْ بالمكارِهْ

(١) مخطوطة النورين الورقة ٤٣ أ.

ثم ينتقل بشكل مفاجيء من شعر الصاحب إلى موضوع بيتيه، وهو حسن الحبيب وقبح الرقيب فيذكر أبياتاً لابن الرومي في ذلك ثم يعود إلى شعر الصاحب مرة أخرى.. وهكذا.

٢ـ يهتم الحصري بجمع الأشباه والنظائر والتوفيق بينها، وخاصة إذا كان المعنى نادراً، وينطبق ذلك على الشاعر الواحد، أو على أكثر من شاعر، بل عند شاعر وناثر أحياناً، وقد يشير إلى أي الشاعرين أخذ من الآخر.

٣ـ أدى به ذلك إلى الاحتفال بشكل واضح بالسرقات الأدبية، وأمثلة ذلك ومصطلحاته متعددة نوردها في أمكنتها من هذا البحث.

٤ـ يعنى عناية خاصة بموضوع الوصف، ويحتفي به أكثر من الأغراض الشعرية الأخرى، ويختار كثيراً من النصوص الشعرية والنثرية في الوصف، كما أن تلك الفصول التي يعقدها ويسميها «ألفاظ أهل العصر في كذا وكذا» كلها تندرج تحت باب الوصف.

٥ـ وفي المقابل يبتعد بشكل واضح في اختياراته عن أبيات الرثاء ومعاني الحزن عامة، كما أن معاني الهجاء نادرة عنده، ولا يأتي بها إلّا على سبيل الفكاهة، ولعل سبب ذلك أن هذه الأغراض الشعرية تخرج عن هدفه الأساسي من الكتاب، وهو إمتاع القارىء وإيناسه.

٦ـ يميل في اختياراته إلى المقطّعات القصيرة، ويبتعد عن القصائد الطويلة، أو يختصر منها بطريقة لا تضيع المعنى، وذلك كله تسهيلاً للحفظ عند الناشئة من الكتّاب ليستفيدوا ما أمكن من اختياراته كما أشار إلى ذلك في الخاتمة.

٧ـ لا يلتزم الحصري بتفسير النصوص في كتابه، أو الترجمة للأعلام كما فعل أحياناً في زهر الآداب، إذ ترجم لعدد لا بأس به من الأدباء، ولا يصدر حكمه أو يبدي رأيه في النص إلّا قليلاً، كما أن أغلب أحكامه نقدية عامة، وغياب أحكامه يعد هنا أمراً بدهياً لا يؤاخذ عليه المؤلف، إذ هو الذي اختار النصوص واستحسنها قبل

إثباتها، ولذا غالباً ما يكون تعليقه من قبيل الاستحسان.

٨ـ تبدو سعة اطلاع الحصري ودقة فهمه وتذوقه في نسبته أبياتاً إلى قائلها اختلفت بعض المصادر في عزوها إليه أو إلى غيره.

ومثال ذلك أنه نسب أبياتاً للعباس بن الأحنف، نسبت في بعض المصادر إليه أو إلى علية المهدية أو إلى المتنبي أو إلى أبي حفص الشطرنجي.

٩ـ لا يكثر من الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

١٠ـ يظهر حبه للبديع في اختياره نصوصاً تكثر فيها ألوانه، وبخاصة لبديع الزمان الهمذاني والخوارزمي وابن المعتز والبستي وغيرهم، ويذكر أنه يراعي في ذلك أيضاً ذوق العصر. يقول عن جناس البستي «وله في الفنّ الذي كثّر فيه أهل العصر من تجنيس الشعر..».

١١ـ يتصيد الفكاهات ويحتفي بالأقوال الحكيمة والأمثال، لتتم الفائدة مع المتعة، ويميل إلى النادر الطريف الذي لم يكثر دورانه في الكتب، ولذا ابتعد عن الأدب القديم.

١٢ـ كان يكثر من ذكر الشيء ونقيضه، وخاصة في الفصول الخاصة بألفاظ أهل العصر.

١٣ـ يعرج أحياناً على بعض الظواهر البلاغية كحسن الخروج.

١٤ـ يتقيد المؤلف عامة بالقيم الدينية والأخلاقية، ويبتعد في مختاراته عن الإسفاف والفحش والمجون الذي انتشر في بعض مؤلفات عصره، فلا يخرج عن حدود الأدب واللياقة، كما يبتعد عن الأبيات التي يبدو فيها الكفر صريحاً، وينبّه على مغالاة بعض الشعراء كالخوارزمي، ويلعنه ويكفّره مما يدل على استقامته وتدينه.

وخلاصة ما نريد قوله في هذا الموضوع أن الحصري كان واعياً للمنهج الذي سار عليه، قاصداً التنويع الأدبي والاستطراد من موضوع لآخر، متأثراً في ذلك

بطريقة الجاحظ ومنهجه في مؤلفاته، وذلك لإمتاع القارىء ودفع الملل عنه.

ثانياً: آراء الحصري النقدية في كتاب النورين:

يورد ابن رشيق في أنموذجه عبارة مهمة تبين مكانة الحصري وإسهامه في الحركة النقدية في عصره، مما كان له أثره في تلامذته من بعده، فقد أخذوا عنه وأفادوا منه، يقول ابن رشيق[1]: «كان شاعراً نقّاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبي تمام وتتبعاً لآثاره».

وتبرز لنا مكانة الحصري النقدية إذا عرفنا أنه من أوائل الذين أسهموا في حركة النقد في المغرب عموماً مع كل من النهشلي والقزاز، هذه الحركة التي نشطت وبلغت أوجها على يد تلامذته ابن رشيق وابن شرف.

وتبدو لنا من خلال كتاب النورين بعض آراء الحصري النقدية مبثوثة في أثناء الكتاب وتضاعيفه، وهي آراء بسيطة قليلة لأن النورين مصنّف في المختارات الأدبية عموماً لا في النقد وأحكامه وأصوله، فما نستظهره من تلك الآراء فيه إنما هو عبارات موجزة وأحكام عامة يوردها الحصري تعليقاً على شاعر أو على مجموعة من الأبيات، دون أن يلزم نفسه دائماً بالتفصيل والتعليل، ولكنها تضيء لنا عموماً جانباً من شخصية الحصري الناقدة.

ولا يحدد لنا الحصري مقياساً نقدياً عاماً في النورين، ولكنه يحدد ما يشبه ذلك في «زهر الآداب وثمر الألباب» مما قد يمثل مزاجه وذوقه ورأيه في الأدب شكلاً ومضموناً»[2]، يقول[3]: «فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر، والفصول والفقر، مما حسن لفظه ومعناه، واستدل بفحواه على مغزاه، ولم يكن شارداً حوشياً ولا ساقطاً سوقياً، بل كان جميع ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البحتري:

---

(١) شعراء القيروان ص ١٨.

(٢) انظر البلاط الأدبي للمعز بن باديس ص ٣٢٧.

(٣) الزهر ١/١.

في نظامٍ من الـبـلاغـةِ ما شَـ ـكَّ امـرؤٌ أنـه نظامُ فَريدِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَـلَ الكـلامِ اختياراً وتَـجَـنَّـبْـنَ ظُلْمَـةَ الـتـعـقـيدِ
وركَـبْـنَ الـلفظَ الـقـريبَ فأدركـ ـنَ به غايةَ الـمـرادِ الـبـعـيدِ

ولكن من استقرائنا لمختاراته في النورين وأسلوبه فيه نجد أنه يجري على ذوق أهل عصره، من الاهتمام بالبديع والحرص على المحسنات البيانية كما صرح بذلك ابن رشيق في عبارته السابقة.

ونجمل في هذه الدراسة أهم آرائه النقدية كما وردت في النورين على النحو التالي:

١ـ السرقات الأدبية:

احتفى الحصري بموضوع السرقات احتفاءً واضحاً، واهتم به أكثر من أي قضية نقدية أخرى، وهذا عائد إلى ثقافته الواسعة، إذ إن ملاحظة التشابه والاشتراك في معاني الشعراء لا يتأتى من القراءة السطحية العابرة، وإنما يكون بالقراءة العميقة المتبصرة، كما يعود من جهة أخرى إلى اهتمامه بجمع الأشباه والنظائر مما يقوده إلى الموازنة بين الشعراء، وملاحظة التقارب في معانيهم وألفاظهم.

ولا يبدي الحصري رأياً واضحاً حول السرقات، وإلى أي حد يسمح فيه للأديب بالأخذ من أديب سابق؟ ومتى تكون السرقة مستهجنة لديه؟ إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بالسرقات، كما أنه لا يحدد أنواعها ومصطلحاتها، وإنما يكتفي بالإشارة إلى أخذ أديب متأخر من آخر متقدم عليه، جارياً في ذلك على أسلوب القدماء في تتبع ما يأخذه المتأخر عن المتقدم، والحكم على المتأخر بأنه دائم الأخذ عن السابقين، دون أن يشير إلى المعاني المشتركة بين الشعراء، أو إلى إضافات المتأخرين على معاني المتقدمين، أو إلى تجويدهم للصياغة مما يخرج ما قالوه عن أن يكون سرقة معيبة.

وهذا منهج التزمه غالباً في مثل هذه النصوص المتشابهة المعاني، وخاصة إذا

كانت المعـاني نادرة، فجلّ همه هو العناية بردّ المعاني إلى أصولها السابقة دون التدقيق في السمات الفنية للنصوص[1].

وبالنظر في النصوص التي بين أيدينا في النورين، والتي أشار إليها الحصري إشاراتٍ تتراوح بين الأخذ الصريح والتشابه نستطيع تقسيم تلك النصوص كما يلي:

أولاً: نصوص يصرح فيها بالأخذ:

ويقصد الحصري بالأخذ، السرقة الصريحة الواضحة التي يعجز الأديب عن إخفائها سواءٌ كانت في المعنى فقط، أم في المعنى واللفظ معاً.

وأمثلة هذا النـوع عديدة نذكر منها على سبيل المثال ما يكون الأخذ فيه في المعنى، نحو ذكر الحصري أبياتاً للنامي آخرها قوله[2]:

لو يكتبُ المَجْـدُ أسمـاءَ الملوكِ إذاً أعــطاكَ موضِـعَ بسمِ اللهِ في الكُتُبِ

يصرح الحصري بأخذ النامي هذا المعنى من قول ابن المعتز في ناقة:

فهيَ أمـامَ الــركبِ في ذهــابِهـا كســطْرِ باسمِ اللهِ في كتابِهـــا

من هذا النوع أيضاً ما يقرره الحصري من أخذ محمد بن علي العلوي معنى مبتكراً وبديعاً في الخروج من مسلم بن الوليد مخالفاً في ذلك ابن دريد الذي يقرر أسبقية العلوي إلى هذا الخروج[3].

يقول محمد بن علي العلوي من قصيدة طويلة:

كأنَّ نذيرَ الشمسِ يحكي ببشْـرِهِ عليَّ بن داودٍ أخــي ونــسـيبــي

---

(١) انظر مبحث السرقات الأدبية في زهر الآداب: الحصري للشويعر ٢٧١، والنقد الأدبي في المغرب ص٣٧٣.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٧ ب.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٥٩ أ.

يقول ابن دريد عـن هذا الخروج: «ما سمعت مثل هذا الخروج قط» فيخالفه الحصري قائلاً: «وإنما أخذه من قول مسلم بن الوليد:

أجِـدَّكِ ما تدرينَ أنْ رُبَّ ليلةٍ كأنَّ دُجـاهـا من قُرونِـكِ يُنْشَـرُ
نَصَبْتُ لهـا حتى تَجَلَّتْ بغُـرَّةٍ كغُـرَّةِ يحيى حين يُذكـرُ جَعْفَـرُ

ويؤكد الحصري ذلك لأن هذا المعنىْ من المعاني النادرة، فالأخذ يكون فيه صريحاً، وفي الغرض نفسه وهـو المدح، يقول الحصري معلقاً على ذلك[1]: «والشيء يذكر بما يدانيه من جهة معانيه».

ويدخل في هذا النوع أيضاً قول أبي العباس الناشيء في كأس خمر منقوشة[2]:

في كأسِـهـا صُوَرٌ تُظَنُّ لحُسْنِهـا عُرْبـاً بَرَزْنَ من الحِجـالِ وغيدا
وإذا الـمـزاجُ أثـارهـا فتقسَّمَتْ ذهـبـاً وُدُرّاً توأمـاً وفـريدا
فكـأنـهـنَّ لِبْسْنَ ذاكَ مجـاسِـداً وجَـعَـلْنَ ذا لنـحـورهـنّ عقـودا

يصـرح الحصـري بأخـذ النـاشيء لهـذا المعنى من أبي نواس في قصيدتـه المشهورة التي يقول فيها:

تُدارُ علينـا الـراحُ في عَسْجَـدِيّةٍ حَبَتْهـا بأنـواع التصـاويرِ فارِسُ
قَرارتُهـا كِسْـرىٰ وفي جَنَبـاتِهـا مهـاً تَدَّريهـا بالقِسيّ الفـوارِسُ
فللْراحِ ما زُرّتْ عليهِ جُيوبُـهـا ولـلمـاءِ ما دارتْ عليه القـلانِسُ

ومن هذه النصـوص ما يكون الأخذ فيه في المعنى واللفظ نحو أبيات ذكرها الحصري لشمس المعالي منها قوله[3]:

أمـا ترىٰ البحـرَ تطفـو فوقـه جِيَفٌ ويسـتـقِـرُّ بأقـصىٰ قَعْـرِهِ الـدُّرَرُ

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٥٩ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٦٤ ب.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ١٠ ب.

يرىٰ أنها مأخوذة من قول ابن الرومي :

كالـبـحـرِ يرسُـبُ فيه لؤلـؤهُ سُفْـلاً وتـطفـو فوقَـهُ جِيَفُـهْ

فالتشابه هنا في المعنى واللفظ المترادف .

ومما تبدو السرقة واضحة فيه لفظاً ومعنى أيضاً قول ابن هانىء[1]:

الـمُـدْنِـفَـانِ من الـبـريَّةِ كلّهـا جسـمـي وطـرفٌ بابـليٌّ أحـورُ
والـمـشـرقـاتُ الـنـيّراتُ ثلاثـةٌ الـشـمسُ والقمـرُ المنيرُ وجعفـرُ

يرد فيهما الحصري المعنيْن إلى أصولهما، فيرىٰ أن البيت الأول مأخوذ من قول ابن الرومي :

ليس في الأرضِ عليلٌ غيرَ جفـنـيكَ وجـسـمـي

وأما الثاني فمأخوذ من قول محمد بن وهيب الحميري :

ثلاثـةٌ تُشْـرقُ الـدُّنيا ببـهجتهم شمسُ الضحىٰ وأبو إسحاقَ والقمرُ

ومن هذه النصوص ما يصرح فيه الحصري بالأخذ رغم كون المعنى من المعاني المشتركة أو المتداولة بين الشعراء نحو قوله عن بيت الصاحب بن عباد[2]:

فلولا وحـقِّـكِ عُذْرُ الـمـشـيبِ لقلتُ لعينيكِ سَمْعـاً وطـاعـهْ

يرىٰ الحصري أنه مأخوذ من قول إبراهيم بن المهدي في غلام :

لولا الـحـياءُ وأنـنـي مشـهـورٌ والـعـيبُ يعـلقُ بالـكـبـيرِ كبيرُ

فهذا المعنى من المعاني المشتركة التي يصح فيه التوارد، ولا يعد معنى نادراً غريباً يستحق أن يوصم الشاعر المتأخر بسببه بالسرقة والأخذ أو حتى النقل،

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٥٧ ب .

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٤٢ أ .

بالإضافة إلى أن عذر الصاحب كان الشيب وكبر السن، أما عدر إبراهيم فهو المكانة الكبيرة والشهرة.

ومن ذلك حكمه على ابن الرومي بالسرقة والأخذ من عبد الله بن أبي السمط في قوله[1]:

كأنّ الثديّ إذا ما بَدَتْ ... وزانَ العقودُ بهنَّ النحورا
حقاقٌ من العاجِ مكنونةٌ ... حَمَلْنَ من الدُرِّ شيئاً يسيرا

أخذه ابن الرومي في قوله:

صدورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عاجٍ ... ودُرٌّ زانَهُ حُسْنُ اتّساقِ

رغم أن هذا المعنى من المعاني الشائعة عند شعراء قدماء ومتأخرين.

وقد يصرّح الحصري بأن هناك أخذاً متبادَلاً بين الشعر والنثر لما يراه من التشابه في المعاني الشعرية والنثرية، ومن أمثلة ذلك قول المُطّوّعي في قصته مع الأمير أبي الفضل الميكالي[2]: «فلما سُلَّ سيف الصبح من غمد الظلام»، يقول الحصري: «أخذ المُطّوّعي قوله فلما سُلّ.. من قول أبي الفتح البستي:

رُبَّ ليلٍ أغمدَ الأنوارَ إلاَّ ... نورَ ثغرٍ أو مُدامٍ أو ندامِ
قد نعمنا بدياجيه إلى أن ... سُلَّ سيفُ الصبحِ من غمدِ الظلامِ

والأخذ هنا في المعنى واللفظ معاً.

وكذلك قول المُطّوّعي القصة نفسها: «كاد غيثها يعود عَيْثاً» مأخوذ من قول البستي:

لا تَرْجُ شيئاً خالصاً نفعُهُ ... فالغيثُ لا يخلو من العَيْثِ

(١) مخطوطة النورين الورقة ٤٨ ب.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٥١ أ.

ومن ذلك قول أعرابي[1] عن نفسه: «ولكنها تفيض عند امتلائها»، يقول الحصري: «أخذه أبو تمام الطائي فقال:

شكوتُ وما الشكوى لمثلي بعادةٍ ولكنْ تفيضُ النفسُ عندَ امتلائها

ويدخل في ذلك أيضاً قول كسرىٰ أنو شروان[2]: «النرجس ياقوت أصفر بين درّ أبيض على زمرد أخضر»، يقول الحصري أخذه بعض المحدثين فقال:

وياقوتةٍ صفراءَ في رأسِ دُرّةٍ مُرَكَّبةٍ في قائمٍ من زَبَرْجَدِ
كأنّ بهيّ الدّرِّ عقدُ نظامِها بغيرِ فريدٍ قد أطافَ بعسجدِ

وأما قول أردشير بن بابك[3]: «الورد درّ أبيض، وياقوت أحمر، على كراسي زبرجد، بوسطه شَذْر من ذهب أصفر، له رقة الخمر، ونفحات العطر»، فيرى أن محمد بن عبد الله بن طاهر أخذه في قوله:

كأنهنّ يواقيتٌ يُطيفُ بها زُمُرُّدٌ وسطَهُ شَذْرٌ من الذَّهَبِ
فاشْرَبْ على مَنْظَرٍ مُسْتَظْرَفٍ حَسَنٍ من خَمْرةٍ مُزَّةٍ كالجَمْرِ في اللَّهَبِ

ثم أخذه ابن بسّام في قوله:

أما ترىٰ الوردَ يدعو للورودِ على حمراءَ صافيةٍ في لونها صَهَبُ
مَداهنٌ من يواقيتٍ مُركّبةٍ على الزَّبَرْجَدِ في أجوافِها ذَهَبُ

وقد يستخدم الحصري لفظة «ألمّ» عوضاً عن «أخذ» كقوله عن بيت ابن وكيع:

فكلُّ قلبٍ إليه منصرِفٌ كأنّه من جميعها خُلِقا

«ألمّ فيه بقول مُخارق في إبراهيم الموصلي: كأنه خلق من كلّ قلب، فهو يغني كلاً بما يشتهيه»[4].

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٤٧ ب.

(٢)، (٣) مخطوطة النورين الورقة ١٩ أ، وانظر أمثلة أخرى في الورقة ٦٣ أ.

(٤) مخطوطة النورين الورقة ١١ ب.

ثانياً: نصوص يلاحظ فيها تشابهاً في المعنى بين شاعرين أو أكثر، ولكن لا يصرح فيها بالأخذ، وغالباً ما تكون عبارته فيها «وهذا كقول فلان. . ».

وأمثلة هذا النوع كثيرة لأنه يجمع الأشباه والنظائر، نورد منها ما يلي:

أ ـ ما يكون بين أكثر من شاعرين، فهو يذكر ـ مثلاً ـ أبياتاً لابن المعتز آخرها قوله[1]:

الـحُـسْـنُ فيه كامِـلٌ وفـي الـورىٰ مُخْـتَـصـرُ

ثم يقول: «وقد قال ابن وكيع في المعنى الأخير من هذه الأبيات:

صَوَّرَهُ خالـقُـنـا جامـعـاً لكـلّ شيءٍ حَسَـنٍ بارعِ
فكـلُّ حُسـنٍ في جميعِ الـوَرىٰ مختصـرٌ من ذلـكَ الجـامـعِ

وقد قال ابن الرومي في هذا المعنى:

لا شيءَ إلّا وفـيهِ أحـسـنـه فالـعـينُ منـه إلـيه تنـتـقـلُ
فوائـدُ الـعَـيْنِ فيه طارفـةٌ كأنـمـا أخـرياتُـهـا الأُوَلُ

فيلاحظ هنا التقارب في معنى واحد عند ابن المعتز وابن وكيع التنّيسي وابن الرومي ولا يصرح بالأخذ والسرقة ربما لعدم استطاعته الجزم بذلك، فلا يدري أيّهم سبق إلى هذا المعنى لأنّهم من عصر واحد تقريباً[2].

ب ـ ومنها ما يكون بين شاعريْن: وهو النوع الغالب، ومن ذلك ذكره أبياتاً لابن الرومي آخرها قوله في الشمس[3]:

ظَلَّتْ تُسـايِرُنـا وقـد بَعَـثَـتْ ضوءاً يلاحـظُنـا بلا لَهَـبِ

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ١١ ب.

(٢) انظر أمثلة التشابه عند أكثر من شاعرين في النورين الورقة ٣١ ب، ٢٦ أ، ٢٦ ب.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ١٩ أ.

يقول الحصري: «هذا في وصف الشمس كما قال ابن المعتز:

تَظَلُّ الـشـمسُ ترمـقُـنـا بطَرْفٍ خَفِـيٍّ لَحْـظُه من خلفِ سِتْـرِ

فقد لحظ تشابه الاستعارتيْن بل تطابقهما في هذين البيتين.

ومن ذلك أبيات لشمس المعالي آخرها قوله[1]:

أنـا معـدنُ الياقـوتِ جسمي أصفر ومـدامـعـي حُمْـرٌ وقـلبـي أزرقُ

يقول الحصري: «وهذا البيت ينظر إلى قول أبي محمد وكيع في فحواه دون نجواه، وفي لفظه دون معناه وهو:

جوهـريُّ الأوصـافِ يَقْصُـرُ عنـه كلُّ وَصْـفٍ وكـلُّ ذِهْـنٍ دقـيقِ
شاربٌ من زبـرجَـدٍ وثـنـايا لؤلـؤٍ فوقـهـا فَمٌ من عقـيقِ

وعندما يشك الحصري في السرقة يستخدم تعبيراً يشير إلى ذلك دون أن يجزم به كقوله في أبيات علية بنت المهدي[2]:

وُضِـعَ الـحُـبُّ على الجَـوْرِ فلو أنـصـفَ الـمعشـوقُ فيه لَسَمُـجْ
ليس يُستحسنُ في وصفِ الهـوى عاشـقٌ يحـسـنُ تأليفَ الحُجَـجْ

يقول فيها: «كأنها ذهبت في البيت الأول إلى قول العباس بن الأحنف:

وأحـسنُ أيّامِ الهـوى يومُـكَ الـذي تُروَّعُ بالـهـجْـرانِ فيه وبـالـعَـتْـبِ
إذا لم يكن في الحبِّ سُخْطٌ ولا رضىً فأين حلاواتُ الـرسـائـلِ والكُتْبِ

فقد لحظ الحصري تشابه المعنى هنا، وهو التذاذ العاشق بجَوْر الحبيب وظلمه له، ولكنه لم يستطع الجزم بسرقة عُليّة لهذا المعنى فاستخدم كلمة «كأنّها».

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ١١ ب.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٣٥ أ.

وربما لا يصرح بالسرقة أو الأخذ رغم اتفاق المعنى لجهله بالقائلَيْن، ومثال ذلك ذكره بيتين لشاعر لم يسمه، وهما[1]:

اسْتَكْتَمَتْ خَلْخالَها ومَشَتْ ... تحت الظَّلامِ به فما نَطَقا
حتى إذا ريحُ الصَّبا نَسَمَتْ ... ملأ العبيرُ بسِرِّها الطُرُقا

ثم يذكر أبياتاً لآخر لم يسمه أيضاً في مثل هذا المعنى آخرها:

وتَوَقَّ الطِّيبَ ليلتَنا إنه ... واشٍ إذا سَطَعا

ومن هذا النوع ما يكون فيه التشابه واضحاً في المعنى النادر ولكنه لا يصرح بالأخذ أو الاقتباس لمكانة الشاعر الآخذ وتنزيهاً له عن ذلك. ومثاله ذكره بيتي عنترة في الذباب[2]:

وخلا الذُّبابُ بها فليس ببارِحٍ ... غَرِداً كفِعْلِ الشارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذراعَهُ بذراعِهِ ... قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

ثم يقول: «وعلى ذكر بيتي عنترة قال ابن الرومي وذكر روضة...» ويذكر له قصيدة طويلة في وصف روضة منها بيتان مشابهان لبيتي عنترة في الذباب هما:

وغَرَّدَ رِبْعيُّ الذُّبابِ خلالَه ... كما حَثْحَثَ النشوانُ صَنْجاً مُشَرَّعا
وكانت أهازيجُ الذُّبابِ هناكُمُ ... على شَدَواتِ الطَّيْرِ ضَرْباً مُوَقَّعا

فلم يشر إلى أخذ ابن الرومي رغم ندرة المعنى وشهرة بيتي عنترة. وأمثلة هذا النوع كثيرة في النورين[3].

جـ ـ ومن نصوص الحصري ما يلحظ فيه التشابه والتقارب بين معنى في الشعر

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٤٨ أ، ٤٨ ب والبيتان لابن أبي زرعة الدمشقي، والآخران لبشار بن برد أو للحارث بن خالد المخزومي.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٦٤ ب ـ ٦٥ ب.

(٣) انظر أمثلة التشابه بين شاعرين في النورين الورقة: ١٧ أ، ٤٣ أ، ٤٣ب، ٧٣ ب.

وآخر يماثله في النثر، ولكنه لا يصرح فيهما بالأخذ.

ومن أمثلة ذلك ذكره أبياتاً وردت دون عزو في آخر رسالة للصاحب بن عباد هي[1]:

عَيْشاً لنا بالأبْرَقَيْنِ تأبَّدَتْ أيامُهُ وتجدَّدَتْ ذِكراهُ
والعيشُ ما فارقتَهُ فذكرتَهُ لَهَفاً وليس العَيْشُ ما تَنْساهُ

يقول الحصري عنها: «وهذا كقول الحسن بن سهل: حدّ الطرب ما بقي سروره يتخيل في النفس، ويتردد في الفكر».

د ـ ومنها ما يلحظ فيه الحصري التشابه والتقارب في المعنى عند شاعر واحد، وهذا يخرج من باب السرقة إلى باب تكرار الشاعر لمعانيه، ومن أمثلة ذلك ذكره أبياتاً لابن وكيع منها[2]:

تتلقّى القلوبُ منه قَبولاً كتَلَقّي المخمورِ بَرْدَ النَّسيمِ

يقول: «وهذا كقوله:

ظَفِرْتُ بقُبْلَةٍ منه اختِلاساً وكنتُ من الرَّقيبِ على حِذارِ
ألَذَّ من الصَّبوحِ على غَمامٍ ومن بَرْدِ النسيمِ على خُمارِ

ثالثاً: نصوص يشير فيها الحصري إلى احتذاء شاعر طريقة شاعر آخر معروف، أو متابعته له في المعنى، وهو ما يعرف بالتأثر:

ومن ذلك إشارته إلى متابعة تميم بن المعز طريقة ابن المعتز في تشبيهاته وبديعه يقول:[3] «كان تميم بن المعز يقتفي طريقة ابن المعتز في التشبيهات وبدائع

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٤٣ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ١٢ ب، وانظر أمثلة هذا النوع في النورين الورقة ٢٦ أ، ٣٠ ب.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٢٦ ب.

الصفات، ويتابعه في سلوك ألفاظ الملوك . . » .

ومن ذلك ملاحظته التشابه بين أبيات تميم بن المعز التالية[1]:

أبـاحَ لمـقـلتـيْ الـسَّـهَـرا وجـارَ عليَّ إذ قَدَرا
غزالٌ لو جَرىٰ نَفَـسـي عليهِ لذابَ وانْـفَـطَرَا
ولـكـنْ عينُـه حَشَـدَتْ عليَّ الـغُـنْـجَ والـحَـوَرا
ومـن أَوْدىٰ به قَمَـرٌ فكـيف يعـاتِـبُ الـقَـمَـرا

وبين أبيات لأبي نواس. يقول الحصري في تميم: «كأنّه ذهب إلى طريقة أبي نواس في قوله:

كأنّ ثيابَـهُ أَطْلَعْـنَ في أزرارِهِ قَمَـرا
يزيدُكَ وجهُـهُ حُسْـنـاً إذا ما زِدْتَـهُ نَظَرا
بعـيْنٍ خالَطَ الـتـفـتـيـ ـرُ من أجـفـانِـهِ الـحَـوَرا
ووجْـهٍ سابـريٍّ لـو تَصَـوَّبَ ماؤُهُ قَطَرا

فقد لحظ تشابه المعنى العام، إضافة إلى اتفاق الوزن والقافية، فكأن قصيدة تميم متممة لقصيدة أبي نواس.

ويدخل في هذا ذكره أبياتاً للناجم في رثاء جاريةٍ مغنّية، وتعليقه عليها بقوله: «تبع فيها أستاذه ابن الرومي . . » في أبيات يذكرها له[2].

٢ـ الطبع والصنعة:

مع أن الحصري يميل إلى البديع ويلتزمه غالباً في أسلوبه، فإنه يذكر لنا رأياً مهماً في الطبع والصنعة، يفضل فيه التوسط بينهما يقول[3]:

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٢٦ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٣٩ ب. (٣) مخطوطة النورين الورقة ٣٠ أ.

«والكلام الجيّد الطبع، مقبول في السمع، قريب المتناول، بعيد المنال، أنيق الـديباجة، رقيق الزجاجة، يدنو من فهم سامعه دنوّه من وهم صانعه، والمصنوع مثقّف الكعوب، معتدل الأنبوب، يطّرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته، كما يجول السّحر في الطَرْف الكحيل، والأثر في السيف الصقيل، وحملُ الصانع شعره على الإكراه في التعمّل لتنقيح المباني دون تصحيح المعاني يعفّي آثار صنعته، ويطفىء أنوار صيغته، ويخرجه إلى فساد التعسف وقبح التكلف، فإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجسه، وتنفثه وساوسه من غير إعمال النظر، ولا تدقيق الفكر يخرجه إلى حد المستهدم الرثّ، وحيّز المستوخم الغثّ، وأحسن ما أُجري إليه، وعوّل عليه التوسط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين في الطبع والصنعة».

ويبين الحصري في هذا النص مفهوم الطبع لديه، فهو الكلام الذي تميل إليه النفس، ويجد لديها قبولاً، ويكون من السهل الممتنع الذي اعتني بمعناه كما اعتني بلفظه وأسلوبه، لأنه إذا أهمل لفظه خرجت معانيه وأشعـاره إلى حيز المستهدم الرثّ والمستوخم الغثّ فأصبحت مستكرهة. وأما المصنوع فهو الذي اعتنى به صاحبه فثقّفه ونقّحه بألوان البديع، ولكن قد تجرّه المبالغة في التصنّع إلى التكلف وفساد المعنى.

وهـو يذهب إلى أن البحتري يمثل الشعراء المطبوعين خير تمثيل فيقول بعد العبارة السابقة[1]: «والله قد جعل البيان مقسّماً في خلقه، وأجلّ حظّ البحتري، إذ كان عن هذه القوس ينزع، وإلى هذا النحو يرجع».

٣ـ القدماء والمحدثون:

يميل الحصري إلى أدب المحدثين، ويتضح ميله وإعجابه بهم وتقديره لهم من اختياراتـه، التي جعل جلّها لشعراءَ محدثين ومعاصرين، متابعاً في ذلك الاتجاه

(١) مخطوطة النورين الورقة ٣٠ أ.

الجديد في التأليف في عصره، الذي بدأ يميل إلى الاهتمام بجمع أخبار المحدثين وأهل العصر، رائده في ذلك الثعالبي في مؤلفاته، وعلى رأسها «يتيمة الدهر».

والواقع أن الحصري ينظر إلى جودة النص، ويحكّم فيه ذوقه الشخصي دون اعتبار لمسألة قدمه أو حداثته[1]، ولكنه يبتعد في مختاراته عن أدب القدماء لشيوعه ودورانه على ألسنة الناس.

يقول في مقدمة كتابه موضحاً اتجاهه للأخذ بأدب المحدثين[2]: «ووشّحتها بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم والنثر من أفراد أهل العصر، الذين قهروا السابقين وبهروا اللاحقين، بكريم عنصر البلاغة، وصميم جوهر البراعة..». فهو يصرح في هذا النص بأن هؤلاء المحدثين قد سبقوا القدماء وتفوقوا عليهم في البلاغة والبراعة، وهذه نظرة نقدية مهمة تخرج بصاحبها عن دائرة التعصب للقديم التي طغت على المؤلفات والمختارات الأدبية لعدة قرون.

ويشير المؤلف في عدة مواضع من النورين إلى المعاني المولّدة المبتكرة عند المحدثين، مثل أبيات أبي نواس في إيوان كسرى يقول:[3] «وهذا مما اخترعه أبو نواس». ويعلّل في خاتمة كتابه تفضيله أشعار المحدثين مؤكداً إعجابه بهم رغم كونهم من أصول أعجمية، ويحثّ العرب على احتذائهم واقتفاء آثارهم في أثناء حديثه عن أدوات البلاغة اللازمة للأديب الناشئ. يقول[4]: «فأولاهما بعد إقامة اللسان حفظ كلام أمراء البيان، وبخاصة أهل هذا الزمان، إذ النفس أقرب إلى ما قرب منها مما بعُد عنها، وهي أحقّ وأحجىٰ أن تكون لإدراكه أرجىٰ ولا سيما إذا رأىٰ العربي الصريح نطق العجم باللسان الفصيح، في ألفاظ لو اجتُلِيَتْ جواهرها، واجتُنِيَتْ زواهرها لكسدت صناعة الحُلى والحُليّ، وبارت بضائع الوسمّي والوليّ.. فكثير مما أوردت عليك من روائع حكمهم وبدائع كلمهم أعاجم، درّت لهم

---

(١) انظر النقد الأدبي في المغرب ص ١٣١.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٣ أ، ٣ ب.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ٦٤ ب.

(٤) مخطوطة النورين الورقة ٧٢ ب.

الفصاحة بغير عِصاب، وسبقت إليهم الرجاحة بغير اغتصاب، إذ علموا ما آية معانيها وكيفية مبانيها».

وقد أثّرت نظرته هذه إلى القدماء والمحدثين في تلامذته، وبدت أكثر وضوحاً وتحرراً عند ابن شرف وابن رشيق[1].

٤ـ الموازنـــة:

يقوم الحصري أحياناً بموازنة بين عدد من الشعراء والكتّاب، وهو لا يتوسع في الموازنة بما تفرضه من دراسة لكلا الأديبيْن وتفوق أحدهما على الآخر، وإنما هي أحكام سريعة تعتمد على الذوق أكثر من اعتمادها على الدراسة والتمحيص.

وأبـرز مثـال على ذلـك موازنتـه بين إسحـاق الصّابي وابن عمه أبي الخطّاب المفضّل الصّابي، يقول[2]: «وأبو إسحاق فريد زمانه ووحيد أوانه، له في كل طريفة غرة الأوضاح، ومن كل لطيفة قادمة الجناح، وله من كل طريقة قدم، وفي كل لطيفة تقدم. وابن عمه أبو الخطاب أحلى وأطبع، وأرسى وأصنع».

وقد يورد أخباراً في الموازنة بين بعض الشعراء ينقلها عن غيره دون تعليق منه في الغالب، وإن كان سكوته عنها يدل على موافقه لما جرىٰ عليه الرأي فيها، لأنَّ هذه الأخبار والأقوال من اختياراته التي أعجب بها ووافقت رأيه وهواه.

ومن ذلـك خبر البحتري مع المبرد وابن درستويه[3]، وخبر أحمد النوفلي مع أحمد بن أبي طاهر في أبيات محمد بن وهيب الحميري[4].

---

(١) انـظر العمـدة في صنـاعـة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، باب «القدماء والمحدثون» ص٥٦، مطبعـة هنـدية، القـاهـرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٥م، ورسائل الانتقاد لابن شرف ص٣٩، تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب دار الكتاب الجديد، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٦٧أ، وانظر أمثلة على ذلك الورقة: ٦٤ ب، ١٣ أ، ١٥ أ.

(٣) مخطوطة النورين الورقة ١٨ أ.

(٤) مخطوطة النورين الورقة ٥٧ أ.

٥ـ اللفــظ والمعنــى:

يشير الحصري في النورين إشارة عابرة إلى اللفظ والمعنى نستنتج منها رأيه استنتاجاً، فعلى الرغم من أن الحصري يميل إلى الاتجاه البديعي الذي غزا أدب عصره فإنه يفضل التسوية بين اللفظ والمعنى، أو بين المباني والمعاني ليصل الأديب إلى ذروة سامقة في فنّه، يقول في أثناء مدحه للأدباء المحدثين[1]: «فكثير ممن أوردت عليك روائع حكمهم وبدائع كلمهم أعاجم، درّت لهم الفصاحة بغير عِصاب، وسبقت إليهم الرجاحة بغير اغتصاب، إذ علموا ما آية معانيها، وكيفية مبانيها..».

٦ـ أحكام نقدية عامة:

تكثر الأحكام النقدية الجزئية والمقتضبة التي تتناول عدداً كبيراً من الشعراء أو النصوص في كتاب النورين، وذلك لأن الكتاب ـ كما أسلفنا ـ ليس كتاباً نقدياً متخصصاً يتناول فيه المؤلف الشعراء أو النصوص بالدراسة والنقد، ولكنه كتاب مختارات أدبية، يكتفي فيها الحصري بالتعليق الموجز والحكم السريع على بعضها، ولكنها قد تلمح إلى آرائه بوجه عام.

وأمثلة هذه الأحكام كثيرة نورد منها أولاً الأحكام الخاصة بالشعراء:

١ـ يقول عن العتّابي[2]: «وكان العتابي جيّد العقل واللسان، حسن العبارة والبيان، في النثر الرائع والشعر البارع، وقلّما اجتمع هذا..». فهو يمتدح معاني العتابي وحسن ألفاظه وجودة أسلوبه، وقد اجتمع له ذلك في النثر والشعر معاً، وهو ما يراه الحصري قليلاً ونادراً عند من يجري في ميداني النثر والشعر، إذ يبدو في الغالب تفوقه في أحدهما وضعفه في الآخر، وقد ذكر أمثلة على هذا في أثناء كتابه،

(١) مخطوطة النورين الورقة ٧٢ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ١٤ ب.

كبديع الزمان الهمذاني الذي أجاد في النثر وقصّر في الشعر، وكذلك حال شمس المعالي قابوس بن وشمكير إذ يقول عنه[1]: «وشعر شمس المعالي يضعف عن نثره. . ».

٢- يقول عن ابن المعتز[2]: «وكان أبو العباس عبدالله بن المعتز رقيق حاشية اللسان، أنيق ديباجة البيان، وكان كما قال ابن المرزبان: «إذا انصرف عن بديع الشعر إلى رفيع النثر أتى بحلال السّحر»، وهو أبدع الناس استعارات، وأحلاهم إشارات، وليس بعد ذي الرمة أقصد منه للتشبيهات».

وعبارته هذه مهمة لأنه يضع ابن المعتز في المرتبة الأولى في جودة الاستعارة متجاوزاً أبا تمام في ذلك، كما يضعه بعد ذي الرمة في إحكام التشبيه، ويأتي حكمه بألفاظ عامة مطلقة (أبدع، أحلى، أقصد) كحال النقاد القدماء عامة.

٣- يقول عن تميم بن المعز[3]: «كان تميم بن المعز يقتفي طريق ابن المعتز في التشبيهات، وبدائع الصفات، ويتابعه في سلوك ألفاظ الملوك، وكانت يد فكره قاصرة عن مرماه، فيما عنّ له من معناه، ولكنه أدمن فأحسن في كثير مما اعتمده وقصده، وشعره بمصر مع استحكام السن غاية في الحسن. . ».

ويشير الحصري في هذه العبارة إلى تأثر تميم بطريقة ابن المعتز، ومتابعته له في الإكثار من التشبيهات والأوصاف المبتكرة، وفي اختياره ألفاظاً بعيدة عن الإسفاف والتبذّل، كما يشير إلى أهمية الممارسة والدربة في صقل الموهبة، فهو يرى أن شعر تميم المتأخر أفضل من شعره في مطلع حياته الأدبية. كما يلحظ تفوّق أسلوبه على معانيه بوجه عام.

٤- ويقول عن ابن بسّام[4]: «كان فصيح اللسان، صحيح البيان، جميل الثناء،

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ١١ أ.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٢٧ ب. (٣) مخطوطة النورين الورقة ٢٦ ب.

(٤) مخطوطة النورين الورقة ٥ ب، وانظر أمثلة أخرى: ١٢ أ، ٤٠ ب، ١٨ ب، ٤٦ ب.

خبيث الهجاء، ولم يكن له حظ في التطويل، وإنما تحسن مقطعاته، وتندر أبياته».

ويشير في هذه العبارة إلى إجادة ابن بسّام في معانيه وألفاظه، وبخاصة في المديح والهجاء، كما يلحظ قِصَر نفَسه الشعري، ولذا تكثر مقطعاته وتندر قصائده الطويلة، وهو شاعر مقل بوجه عام.

ومن أمثلة الأحكام العامة على الشعر ما يلي:

١ـ تعليقه على قصيدة طويلة لأبي حيّة النميري بقوله[١]: «وهذا شعر ظريف الصنعة، حسن الوشي، جيد النمط، صافي السبك، وكذلك جميع شعر أبي حيّة، وقد ملح ما شاء في وصف الثغر وطيب النكهة، وهو معنى حسن جميل». وهذا مثال جيد يوضح مفهوم الحصري عن جودة الشعر، فهو لديه ما كان مرهف الصّنعة بعيداً عن التكلف، يُعنى صاحبه بوشيه وتنميقه بألوان من المحسنات البديعية والصور البيانية، كما يفضل الشعر العالي في طبقته، الرفيع في أسلوبه، البعيد عن الابتذال والإسفاف، الخالي من التعقيد والمعاظلة والضرورات، وهذا ينطبق كما ذكر على شعر أبي حيّة، كما يشير في العبارة السابقة إلى إجادته معنىً خاصاً في الشعر يكثر عنده، فكأنه يلحظ أن التخصص في المعنى والانقطاع إليه يصل بصاحبه إلى الجودة والسبق فيه.

٢ـ يقول عن شعر أبي الفتح[٢]: «وشعر أبي الفتح ينمّ عن تصرفه في العلم..» ثم يأتي بستة مقطعات تؤكد ما ذهب إليه.

ونكتفي بإيراد مقطّعة منها على سبيل التمثيل، يقول البستي:

شَرَفُ الـوَغْـدِ بوغـدٍ مثـلِه ... مَثَـلٌ ما فيه زَيْغٌ أو خَلَلْ
ودلـيلُ الـصـدقِ فيمـا قلتُـهُ ... شَرَفُ المّريـخِ في بيتِ زُحَـلْ

(١) مخطوطة النورين الورقة ٦٨ ب.

(٢) مخطوطة النورين الورقة ٤٦ ب.

٣ـ يشير إلى استحسانه بعض الأبيات بألفاظ عامة، متابعاً في ذلك النقاد القدامى، كما نلحظ أن اختياره لتلك الأبيات جاء في المعاني التي أشار إليها كثير من القدماء من قبل، نحو قوله: «ومن أطول ما قيل في الليل قول ابن الرومي [1]:

رُبَّ ليلٍ كأنّه الدهرُ طولاً ... قد تَناهىٰ فليس فيه مَزيدُ

فلطالما أشار النقاد القدامىٰ إلى هذا المعنى، وتمثلوا قول امرىء القيس:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخىٰ سدولَهُ ... عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي

أو قول النابغة المشهور:

كِليني لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

ومن ذلك قوله أيضاً[2]: «ومن أجمع ما قيل في وصف الثريا وأحسنه قول الحاتمي وطرّف:

وليلٍ أَقَمْنا فيه نُعْمِلُ كأسَنا ... إلى أن بدا للصبحِ في الليلِ عسكرُ
ونجمُ الثُّريا في السماءِ كأنَّهُ ... على حُلَّةٍ زرقاءَ جيبٌ مُدَنَّرُ

فكثيراً ما أشاد النقاد ببيت امرىء القيس المشهور في الثريا.

إذا الثُّريا في السماءِ تَعَرَّضَتْ ... تعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المُفَصَّلِ

ونحو ذلك كقوله: «ومن أجود ما وصف به الليل في الطول والقصر قول سيدوك الواسطي . . »[3] وقوله: «ومن أبدع ما جاء في وصف النجوم وذكر الليل مع حسن تصرف وقلّة تكلف قول عليّ بن محمد العلوي . . »[4] ويذكر له قصيدة طويلة. فكأنه جرىٰ في ذلك على نهج النقاد القدامى، ولكنه استبدل بشواهدهم شواهد مشابهة لشعراء محدثين أو معاصرين له.

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ٥٨ أ.

(٢)، (٣)، (٤) مخطوطة النورين الورقة ٥٨ أ.

وخلاصة ما نريد قوله في هذه الأحكام النقدية العامة للحصري أنه يستحسن المعاني المبتكرة البديعة البعيدة عن التكلف والإسفاف مع التشبيهات الناصعة المصيبة، أما الأسلوب فيستحسن منه ما كان مجوّداً رفيعاً، بعيداً عن التعقيد والتعسف، حسن الألفاظ دون إسفاف وابتذال.

أما الصنعة فهو يهتم بالبديع اهتماماً بيّناً، ويعدّه من لوازم الأسلوب الجيد الرفيع. وهو في ذلك كلّه يؤثر الشعر المطبوع والصنعة المرهفة على التكلف الممقوت والتعمّل المستكره.

٤ـ أسلوب الحصري في كتابه النورين:

يصف ابن رشيق أسلوب الحصري بقوله: «يحبُّ المجانسة والمطابقة، ويرغب في الاستعارة تشبُّهاً بأبي تمام، وتتبعاً لآثاره فيقول:

أَوْرَدَ قلبي الرّدى لامُ عِذارٍ بدا
أَسْودُ كالكُفْرِ في أبيضَ مثلِ الهدى

وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ورقّ رقة الهواء، كقوله في بعض مقاطعه:

ياهل بكيت كما بكتْ وُرْقُ الحمائم في الغُصون
هتفتْ سُحيراً والرُّبى للقطرِ رافعةُ الجفون

. . . إلخ الأبيات»[1].

وقد لخصتْ هذه الفقرة على قصرها أهم خصائص أسلوب الحصري، كما لمسها تلميذه ابن رشيق، وهو أعلم الناس بأسلوبه وطريقته.

وعلى الرغم من أن كتاب النورين كتاب مختارات أدبية، لا يتدخل فيه المؤلف

---

(١) شعراء القيروان ص ١٨.

بأسلوبه وصياغته إلاّ قليلاً، فإننا نجد في مقدمة الكتاب وخاتمته وفي بعض جمل المؤلف وآرائه المتناثرة في أثناء الكتاب بعض الملامح التي تعكس أهم خصائص أسلوب الحصري بعامة.

وإذا استعرضنا هذه النماذج نتبين صحة ما ذهب إليه ابن رشيق، فالسمة الغالبة على أسلوب الحصـري هي الميل إلى الأخذ بالمحسنات البديعية وبوجه خاص السجع والجناس والمطابقة، فقد جعلها ضرباً لازماً في نثره، جارياً في ذلك على سنة أدباء عصره من الإغراق في هذه المحسنات لا في النثر فحسب بل في الشعر أيضاً.

ولا يخفي الحصري شدة إعجابه ببديع الزمان وأسلوبه، كما يكثر من ذكر أشعار لابن المعتز ويمتدح بلاغته وتقدمـه في أكثر من موضع، وكذلك البستي وابن وكيع وغيرهم من رواد البديع.

ومـع أن الحصـري أشار في موضع من كتابه إلى تفضيله التوسط بين الطبع والصنعـة، وذم التكلف والتعسف في أسلوب الأديب، فإنه لم يلتزم رأيه هذا في أسلوبه، إذ كـان أميل إلى الصنعة، وحشد أكثر ما يمكن من ألوان البديع، فلا نكاد نعثـر على جملة واحـدة لديه تحـررت من ربقة البديع، ولا يعد هذا مأخذاً على الحصري، لأنه آخذ بذوق عصره، فقد أصبحت الصنعة هي السمة البارزة لأدباء القرن الرابع الهجري بعامة[1].

وأمثلة صنعتـه كثيرة في كتابه، يلتقطها القارىء بسهولة، وبخاصة في مقدمة الكتاب وخاتمته.

ومن أمثلة سجعه وجناسه قوله في المقدمة: «وَصَلَ الله بسيدي الجليل جناح الصنـع الجميل، وواصَـلَ لديه السول، وأوصلَ لديه المأمول، وعَمَر بحبه ربوع

---

(١) انظر خصائص نثر الحصري في كتابه زهر الآداب، الحصري للشويعر ١/١٥٦.

أنسي، وأمطر بقربه ربيع نفسي . . »[1].

ومن أمثلة التوازن والتفصيل بعد الإجمال قوله : «فلا زلت راتعاً في زهرة رياضك، شارعاً في غمرة حياضك، فإنها رياض لا تغض جفون غضارتها، ولا تغيض عيون نضارتها، وحياض تصدر القلوب الصادية عن مواردها الصافية وقد رويت غللها، وشفيت عللها . . » .

وكما تابع الحصري بديع الزمان في الإكثار من المحسنات البديعية، فإنه تابع أبا تمام في حبه للاستعارات وتجسيد المعنويات، ولذلك نماذج كثيرة نذكر منها على سبيل المثال العبارات التالية :

«كتابي باكورة حلّت، تنبيه نائم الخواطر وتحريك ساكن السرائر. يأخذ بعنان المذاكرة. إذا طرز به ديباج كلامه وحلّى عاطل نثره ونظامه. قامت إلى لفظه من شعاب حفظه خُدّام الإصابة على أقدام الإجابة. درّت لهم الفصاحة بغير عِصاب. وهو بخنصر الفخر محسوب وفي صفحة الدهر مكتوب . . الخ» .

والحصري يضمّن نثره ـ وبخاصة في المقدمة والخاتمة ـ بعض الأشعار إما من نظمه، وإما مما استعاره من غيره، ويبدو أنه متأثر في هذه الطريقة أيضاً ببديع الزمان في مقاماته ورسائله .

وخلاصة ما نريد قوله في أسلوب المؤلف، أنه يسير على نهج كتّاب المشرق من الاهتمام بالأسلوب اهتماماً يفوق الاهتمام بالمعنى، ولعلّ منهج الكتاب القائم على نقل الأخبار بأساليب رواتها، أو الاكتفاء بمجرد اختصارها لا يدع لنا مجالاً للحكم على أسلوب الحصري ومميزاته الفنية بصورة واضحة مستوفاة .

---

(١) مخطوطة النورين الورقة ١ ب .

٥ـ منزلة كتاب النورين بين كتب الأخبار:

١ـ منزلته بين كتب المؤلف والكتب المغربية:

بتحقيق هذا الكتاب تكمل الحلقة الأخيرة من سلسلة المؤلفات المعروفة للحصري القيرواني، وبخاصة بعد طبع كتابه «المصون في سر الهوى المكنون»، وذلك إذا استثنينا ديوان شعره الذي لا يزال مفقوداً.

ويتمم هذا الكتاب في مادته الأدبية كتاب زهر الآداب وثمر الألباب، فيشكلان معاً تراثاً أدبياً جماً لمشاهير أدباء المشرق في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

وقد ألّف هذا الكتاب مع مؤلفات الحصري الأخرى أهم الروابط التي وصلت أدب المشرق بالمغرب، إذ أقبل عليها المغاربة بشغف، يتملّون منها سحر أدب المشرق الذي طالما فتنوا به وتغنّوا بأدبائه، وقد ذاع صيت مؤلفات الحصري في المغرب بأسره، ثم انتقل إلى الأندلس، وقد لاقت مؤلفاته هناك ـ على ما يبدو ـ رواجاً كبيراً ـ يتضح ذلك من مديح ابن بسام للحصري وآثاره في ذخيرته، يقول: «كان أبو إسحاق هذا صدر النديّ، ونكتة الخبر الجلي، وديوان اللسان العربي، راض صعابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشتاته، وأحيا مواته، حتى صار إماماً... ، وطَنَّتْ به الأقطار، وشُدَّت إليه الأقتاب والأكوار، وأُنفقت فيما لديه الأموال والأعمار، وهو يقذف البلاد بدرر صدفها الأفكار، وسلوك ناظمها الليل والنهار، عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بـ «زهر الآداب وثمر الألباب»... ، ثم أخذ بعد ذلك في إنشاء التواليف الرائقة، والتصانيف الفائقة ككتاب «النُور والنَوْر»...»[1].

ويضاهي كتاب النورين ـ مع زهر الآداب وثمر الألباب ـ في أهميته وغزارة مادته المشرقية الكتابين المشهورين في المغرب والأندلس، وهما: العقد الفريد لابن عبد

---

(١) الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني ص ٥٨٤.

ربه في الأندلس، والأمالي الذي ألفه القالي في الأندلس أيضاً.

٢ـ منزلته بين كتب التراث المماثلة:

وأما عن منزلته بين الكتب التراثية التي جمعت الأشعار والأخبار، فهو يقدم لنا حصيلة أدبية وافرة لشعراء وأدباء لا تزال الدراسات تنشأ حولهم، ومنهم شعراء لم تنشر دواوينهم، أو أدباء لم تجمع آثارهم بعد، ولم يتناولهم الباحثون بالدراسة. وهو بذلك يقدم لنا جزءاً من هذا التراث المفقود أو النادر، كما يوثّق ما سبق أن ورد في مصادر أخرى كيتيمة الدهر للثعالبي، بل يصحّح الكثير من الروايات المحرّفة والمصحّفة لبعض الدواوين والمصادر، ويضيف أبياتاً لم ترد في دواوين مطبوعة لبعض الشعراء كابن وكيع وتميم بن المعز وكشاجم، ويصحح نسبة أبيات أخرى إلى أصحابها كما أسلفنا من قبل في الناحية الأدبية لهذا الكتاب.

وأخيراً تبدو أهمية النورين في اعتماد بعض المؤلفين المعروفين عليه، ونقلهم عنه، وعلى رأسهم ياقوت الحموي في معجم الأدباء، فقد صرح بالنقل عنه في أكثر من موضع[1].

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٢/ ٩٠، ١٥/ ١٥٤، ١٨/ ١٥٤.

الخاتمة

وهكذا شاء الله أن ينتهي القسم الأول من هذه الرسالة وهو دراسة الكتاب، وكان أهم ما تناولته فيها ما يلي:

١ـ عصر المؤلف، وتناولت فيه النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية، ولم أجد في النورين، أو في أي مصدر آخر ما يدل على تفاعل الحصري مع أحداث عصره السياسية.

٢ـ حياة الحصري القيرواني، ووقفت فيها على نص قيم في ذخيرة ابن بسام لم يقف عليه من درسوا حياة الحصري.

ويكشف هذا النص عن فترة غامضة من حياته، وهي فترة نشأته وتلقيه هذه الثقافة الواسعة التي ازدانت بها كتبه، فقد عمل مع الوراقين في النسخ لجودة خطه، وحصّل من جرّاء ذلك علماً غزيراً، وبخاصة من اطلاعه على أمهات كتب المشرق ونقله عنها.

كما تكشف هذه العبارة عن مصدر آخر من مصادر ثقافته، فابن بسام يشير إلى ملازمة الحصري مسجد مدينة القيروان، إذ كان منزله ملاصقاً له، فواظب على حضور مجالس العلم إبان نشأته، ثم تولى التدريس فيها بعد أن نضج فكره واستقامت طريقته، وقد أسهب ابن بسام أيضاً في الحديث عن مكانة الحصري التي تجاوزت القيروان إلى سائر بلاد المغرب والأندلس.

٣ـ أشرت إلى عقيدته ومذهبه، وترجّح لديّ أنه سنّي، لم تؤثر هجمة الشيعة الفاطميين على عقيدته كما يتضح من بعض النصوص الواردة في النورين.

٤ـ تحدّثت عن أهم تلامذة الحصري، ومكانته لديهم، واجتماعهم بهم، وأخذهم عنه، ومنهم ابن رشيق وابن شرف وأبو طاهر إسماعيل التجيبي البرقي، وخالفت من رأى أن تأثير الحصري فيهم مجرد تأثير راوية ناقل لأدب المشرق،

لوضوح عبارتي ابن رشيق وابن بسام في بيان مكانته الأدبية، وإسهامه في حركة النقد آنذاك، ولما وجدته من صدى آرائه النقدية لدى من تتلمذوا عليه.

٥ـ تناولت أهم آثار الحصري ومؤلفاته التي أصبحت مصدراً رئيساً لأدب المشارقة بالنسبة للمغاربة والأندلسيين كما يشير ابن بسام.

٦ـ قمت بدراسة كتاب النورين دراسة مفصلة، وأثبت صحة نسبة الكتاب إلى أبي إسحاق الحصري القيرواني، ثم وصفت مخطوطاته التي اعتمدتها، وأشرت إلى أهم مصادر الكتاب، وأغلبها مصادر مشرقية.

٧ـ أوضحت أن كتاب النورين ليس مجرد اختصار لزهر الآداب، وهو ما اتفق عليه سائر الباحثين القدماء والمحدثين، فقد تبين لي بعد تحقيق الكتاب، ومقابلة نصوصه الشعرية والنثرية بما ورد في الزهر أن فيه جزءاً مختصراً يشكل نحواً من ثلث الكتاب، ولكن هذه المادة المختصرة جاءت مختلطة بمادة مشرقية جديدة من أشعار ورسائل وأخبار لم ترد في الزهر.

٨ـ قمت بدراسة منهج الكتاب، وتبين لي أن منهج الحصري في اختياره قائم على الذوق الشخصي من جهة، وحسب مفهوم البلاغة الأدبية في عصره من جهة أخرى، كما يتبع في نهجه العام طريقة الجاحظ في الاستطراد وعدم التبويب إلاّ في القليل النادر. ويعنىٰ بوجه خاص بجمع الأشباه والنظائر، كما يميل إلى المقطعات القصيرة، تسهيلاً لحفظ الناشئة والمتأدبين لها. وقد تنزه الكتاب عن أخبار المجون والشعر الفاحش مما لم تسلم منه كثير من أمهات الكتب الأدبية القديمة.

٩ـ تحدّثت عن الآراء النقدية للحصري كما وردت في النورين، والتي جاءت مبثوثة في تضاعيفه، إذ على الرغم من أن كتاب النورين كتاب أدب في الدرجة الأولى فإنه يعكس لنا آراء مؤلفه في عدة قضايا نقدية كالسرقات الأدبية، التي يكتفي فيها الحصري برد المعاني إلى أصولها السابقة، مشيراً إلى أخذ الأديب المتأخر عن المتقدمين، جارياً في ذلك على نهج النقاد القدامى، دون التدقيق في السمات

الفنية للنصوص.

وأما الموازنة فلم يعتمد فيها نهجاً معيناً قائماً على دراسة خصائص كلا الشاعريْن، وإنما تأتي في أحكام سريعة مقتضبة تعتمد على الذوق أكثر من اعتمادها على الدراسة والتمحيص والنقد القاعدي.

وقد أشار الحصري إلى أهمية التسوية بين الطبع والصنعة واللفظ والمعنى، وظهر تقديره الواضح وميله الصريح إلى الشعراء المحدثين في عباراته وأحكامه، كما ظهر في مختاراته الأدبية في هذا الكتاب، إذ أن جلّها لأدباء محدثين أو معاصرين له.

١٠ـ تناولت مضمون كتاب النورين بالدراسة من النواحي الفكرية والاجتماعية والأدبية والتراثية، وانتهيت إلى أن طبيعة هذا الكتاب القائمة على الجمع والانتقاء لا تسمح بالحكم على فكر الحصري أو الحياة العقلية في عصره، وإن كان في مجمله يصور مدىٰ الاتصال الوثيق بين الفكر المشرقي والمغربي، ويبرز ذلك الاتصال على الأخص في مادة الكتاب، وفي تماثل منهجه مع مناهج الأدباء والمؤلفين في المشرق.

وأما بالنسبة للناحية الاجتماعية فقد أشرت إلى أن هذا الكتاب لا يصور مجتمع الحصري في القيروان، لأنه يتناول أدباء المشرق وأخبارهم.

وأما الناحية الأدبية والتراثية فتتمثل في تغير مفهوم الأدب الذي كان سائداً في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وهو الأخذ من كل فن بطرف، فالكتاب أقرب إلى مفهوم الأدب المتخصص إذا وازناه بكتب الجاحظ التي تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، أو وازنّا بينه وبين الكامل للمبرد، حيث تختلط علوم اللغة بالأخبار والنصوص الأدبية.

كما تبدو القيمة الأدبية للكتاب في ذكره نصوصاً شعرية ونثرية لم ترد في مظانها، وهو بذلك يقدم لنا مادة أدبية قيّمة، وبخاصة أنها تدور حول أدباء وشعراء

مشارقة ما تزال الدراسات الفنية تدور حولهم.

وأشـرت إلى أهمية الكتـاب أيضاً في تصحيحه لبعض الروايات التي جاءت مصحفة ومحرفة في بعض المصادر الأدبية والدواوين المطبوعة.

١١ـ بيّنت أن هذا الكتاب يشكّل حلقة من حلقات التراث، وهو الاتجاه إلى التأليف الانتقائي، وبدء الاتجاه المبكر للتلخيص، وإن جاء ممزوجاً بأشياء جديدة جعلته يتأرجح بين الاختصار والتأليف.

١٢ـ تناولت أسلوب المؤلف بالدراسة، وانتهيت إلى أنه يميل عموماً إلى أسلوب كتّـاب المشـرق من الاهتمام بالأسلوب اهتماماً يفوق المعنى، مع الحرص على المحسنات البديعية كالجناس والطباق والسجع، بعيداً عن التكلّف المذموم.

١٣ـ بيّنت منزلة الكتاب وأهميته في كونه أثراً أدبياً مغربياً لم ينشر من قبل، ولعله يسهم مع كتب الحصري الأخرى بإعطائنا صورة مشرقة عن ازدهار حركة التأليف في المغرب، وإن كانت مادته المشرقية الغالبة فيه لا تساعدنا على تجلية الأدب المغربي القـديم الـذي لم ينـل حقه من الاهتمام، فكان إلى يومنا هذا مضيعاً بين الأدب الأندلسي الجديد والأدب المشرقي الأصيل.